«تشيزمان»
في شبه الجزيرة العربية المجهولة

أ.د. دايل بن علي الخالدي

أستاذ التاريخ الحديث المشارك – جامعة الملك فيصل الإحساء

ملخص:

هذه الدراسة تتناول الرحلة التي قام بها العالم البريطاني " تشيزمان " إلى الأحساء عقب الحرب العالمية الأولى. ورغم أن الجزيرة العربية شهدت في العصر الحديث عديدًا من الرحلات الاستكشافية التي اختلفت في دوافعها وأزمانها وأصحابها، إلا إن رحلة تشيزمان تميزت بما لم تحظ به هذه الرحلات جميعا بموسوعيتها ودقتها وزمنها.

فالرحالة عالم طبيعي جاء للبحث الجاد والدراسة العلمية للطيور والحيوانات والمعالم الجغرافية والحضارية المجهولة في هذه المنطقة، فتمخضت رحلته عن اكتشافات علمية جديدة إضافة إلى تصحيح بعض الأخطاء العلمية السابقة.

وإلى جانب الوظيفة العلمية فقد كان تشيزمان – وقت الرحلة – ضابطا في الجيش البريطاني، ويشغل منصب سكرتير السير "بيرسي كوكس" أول مندوب سامٍ بريطاني في العراق عقب الحرب العالمية الأولى، مما أضفى على الرحلة أهمية سياسية وعسكرية وتاريخية، خصوصًا وأن صاحبها قابل الملك عبد العزيز أكثر من مرة سواء أثناء رحلته أو قبلها.

كما أن تشيزمان استطاع أن يقدم لنا وصفا موسوعيًّا لمنطقة الأحساء من الناحية الجغرافية والإنسانية والاقتصادية والسياسية.

من أجل هذا – وغيره – اكتسبت هذه الرحلة أهمية فائقة في تاريخ المنطقة.

Abstract:

This study deals with the journey of the British scientist " Cheesman " to Al-Ahsa after the First World War. Although the Arabian Peninsula in the modern times has witnessed many expeditions of different motivations, times and people, the Cheesman trip was marked by its accuracy, comprehensiveness and time.

This traveler is a nature scientist came for a reliable scientific study of the birds, animals, geography and the unknown cultural landmarks.

In addition to his scientific post, Cheesman - at the time of the journey - was an officer in the British army holds the secretary post to "Sir Percy Cox " the first British high commissioner in Iraq after the First World War and that added to the journey a historical, military and political importance especially since he met King Abdul-Aziz more than one time whether during his journey or before it.

Cheesman

Also Cheesman provided us with an encyclopedically (comprehensiveness) description of Al-Ahsa region from the Geographically, humanitarian, economically and political aspects.

For this - and others - this journey has gained great importance in the history of the region

تقديم:

لقد بدأ الارتياد الأوروبي للجزيرة العربية منذ مطلع القرن السادس عشر الميلادي، إلا إنه اتخذ شكلا فرديًّا وغلب عليه طابع المغامرة. ولكن تطور المعرفة – نتيجة للنهضة الأوروبية – شجع الأوروبيين، وجذبهم إلى الشرق بصفة عامة والجزيرة العربية بصفة خاصة، فقامت العديد من الدوائر والهيئات العلمية بإرسال بعثات علمية، وأبرزها البعثة العلمية التي أرسلها ملك الدنمارك، وكان أبرز أعضائها كارستن نيبور. ولم تلبث بعد ذلك أن أخذت الدوافع السياسية والدينية والتجارية وغيرها بالارتباط بالدوافع الاستكشافية والعلمية[١].

والجدير بالذكر أن الجزيرة العربية قد شهدت وصول عدد من الرحالة الغربيين خلال القرن الثالث عشر الهجري (التاسع عشر الميلادي)، وقد تعددت دوافع هؤلاء الرحالة مابين أهداف دينية تنصيرية، وأهداف استعمارية بجانبيها السياسي والاقتصادي، إضافة إلى الأهداف العلمية والمعرفية التي كانت دافعا لبعض هذه الرحلات[٢]، كما أن منهم من أوفدته حكومته لدراسة طبيعة الأرض أوسكانها، ومنهم من أرسل لإثارة الفتن[٣]، أضف إلى ذلك حب المغامرة واكتشاف المجهول الذي كان سببًا لبعضها الآخر[٤].

ورغم أن معظم هؤلاء الرحالة قد جابوا أرجاء شبه الجزيرة العربية، كلٌّ حسب أهداف رحلته والملابسات التي أحاطت بها، إلا إننا سنقتصر هنا على ما اتصل منها بالأحساء، هذا الجزء الغالي من المملكة العربية السعودية، الذي يمثل أهمية بالغة لوطننا الحبيب، بحكم موقعه على ساحل الخليج العربي، وبحكم ما يحتوي عليه من ثروات زراعية ومعدنية، مما أضفى عليه أهميته الاقتصادية والسياسية والعسكرية والتاريخية والثقافية.

وهذه الدراسة تتناول أحد هؤلاء الرحالة الذين كان لهم ثقل علمي في مجاله.

اسأل الله العظيم أن يعلمنا ما ينفعنا، وأن ينفعنا بما تعلمنا.

"تشيزمان" في شبه الجزيرة العربية المجهولة

إن "تشيزمان" لم يكن من هؤلاء الرحالة المغامرين الذين يلقون بأنفسهم في مهاوي التهلكة، بل لم يخطر بباله يوما أن يقوم بمثل هذه الرحلة، فقد كان يقضي حياته بهدوء وسكينة في مسقط رأسه بمقاطعة "كِنْت" kent في بريطانيا، منشغلا بدراسة أنواع الطيور والحيوانات الموجودة على ظهر الأرض، حيث قال معبرا عن ذلك: " كانت الرحلة خارج حدود المقاطعة تعتبر حدثا مهما "، ويضيف قائلا: " وسيكون عرّافًا جريئًا من كان يتنبأ لي برحلة بحرية طويلة عادية "[٥].

إذاً.. ما الذي قذف بهذا الرجل – الذي يعيش في دعة واستقرار – إلى رحلة طويلة شاقة " في شبه الجزيرة العربية المجهولة"[٦]، وهو الاسم الذي اختاره لكتابه؟!.

لنجيب عن هذا التساؤل يجب أن نمر مرورًا سريعًا على السيرة الذاتية للرجل.

الحرب والطيور:

ولد "روبرت إرنست تشيزمان– *Robert Ernest Cheesman*" في مقاطعة "كنت – *Kent*" التي تقع جنوب شرق العاصمة "لندن – *London*"، وذلك عام ١٨٧٨م. وبعد أن أتم تعليمه بحصوله على شهادة في الكيمياء عام ١٨٩٥م عمل في مجال التاريخ الطبيعي، وظهر ولعه بدراسة الطيور والحيوانات.

عاش "تشيزمان" حياته بطريقة هادئة حتى اشتعلت الحرب العالمية الأولى، فانخرط – مع أقرانه من الشباب – في الجيش البريطاني. وهو يعبر عن تلك الفترة بقوله:" ثم جاء شهر أغسطس المشؤوم من عام ١٩١٤م، وانخرطت في كتيبة "البَفْس"– (*Buffs*)[٧] – مؤملا أن تنتهي الحرب في غضون ثلاثة أشهر بطريقة أو بأخرى"[٨].

" أمضينا سنة في الهند في تدريبات مركزة ثم نقلنا إلى مكان غير معلوم، ونزلنا في بلاد ما بين النهرين. وأخيرا الخدمة العسكرية المباشرة بعد ١٨ شهرا من إعلان الحرب، وما زال الألمان باقون.

وفي بداية صيف عام ١٩١٦م قابلت المقدم السير "برسي كوكس"- (*Percy Zachariah Cox*)- في البصرة، الذي كان وقتها كبير الضباط السياسيين في الحملة البريطانية لبلاد ما بين النهرين"[٩].

ويبدو أن الحرب لم تستطع أن تنسي "تشيزمان" ولعه بدراسة الطيور، بل فتحت له آفاقا جديدة في هذا المجال. وهو يصف ذلك بقوله:" كانت طيور بلاد ما بين النهرين جديدة تماما بالنسبة لي، وكان السير "برسي كوكس" أول عالم طيور أقابله في هذا البلد. مع أنه كان لديه أسبقية المعرفة الطويلة بطيور الخليج العربي، إلا إنه مثلي كانت معرفته بأصناف العراق شحيحة، ولكنه شاطرني رغبة التعرف أكثر على هذه الطيور. بدأنا جمع العينات في ذلك الصيف"[١٠].

ويكشف "تشيزمان" عن دوافع رحلته إلى الأحساء قائلا:" بحصولي على رتبة ضابط في الجيش الهندي أرسلت في الخريف إلى الشعيبة – (بالعراق)- وطوال الليل والنهار كانت أسراب من الطيور المهاجرة تمر فوق خيامنا متجهة جنوبا صوب صحراء الجزيرة العربية "[١١].

لقد أثارت أسراب الطيور المهاجرة فوق العراق في اتجاه الجزيرة العربية فضوله لدراسة الأصناف التي تعيش في الجزيرة، وهذا ما عبر عنه قائلا:" إن مجموعات العينات التي حصلنا عليها زادت لهيب حماسي لمعرفة الأصناف التي تعيش في وسط الجزيرة العربية. لا يوجد شيء من الجنوب في متاحف العالم لمقارنة عيناتنا"[١٢]، ويواصل حديثه قائلا:" كثيرا ما ناقشت مع السير برسي كوكس الطرق والوسائل لإرسال جامع للعينات إلى الداخل"[١٣].

وضمانا لنجاح الرحلة وعدم التعرض لمخاطر غير محسوبة فقد تم الاتفاق على ضرورة الحصول على موافقة وتعاون الملك عبد العزيز نفسه، الذي أعطى الإذن خلال أحد اجتماعاته التي كان يعقدها مع السير برسي كوكس، وعلى وجه التحديد في ديسمبر ١٩٢٢م(١٤).

والمستغرب حقا في السطور السابقة أنه رغم ظروف الحرب العالمية الأولى، والاضطرابات السياسية والعسكرية والأمنية في المنطقة، رغم كل ذلك فقد وجد رحالتنا ورئيسه – وهما ضابطان عاملان في الميدان – الفرصة للقيام بالبحث العلمي في مجال الطيور والحيوانات، مما يدل على أن روح البحث العلمي لدى هؤلاء الناس لا تختلف كثيرا عن ميادين القتال !.. ربما تكون هذه الروح هي مفتاح التقدم العلمي والتكنولوجي لدى الغرب، رغم اختلافنا معهم في كثير من القيم والمفاهيم.

الطريق إلى الأحساء:

بعد إنهاء الاستعدادات الضرورية بدأ "تشيزمان" رحلته مصطحبا معه غلامه العربي مهدي بن صالح، وحقائبه السبعة عشرة الضخمة التي حرص على أن يصحبها بنفسه، حيث غادرت الباخرة بريطانيا في الرابع من أكتوبر ١٩٢٣م متجهة إلى البصرة، ومن هناك استقل سفينة البريد البطيء لشركة الهند البريطانية التي وصلت ميناء البحرين يوم ١٤ نوفمبر ١٩٢٣م(١٥).

نزل "تشيزمان" ضيفا عند المقيم السياسي البريطاني بالبحرين، الذي كان قد أرسل رسالة إلى أمير الأحساء "عبد الله بن جلوي"، حتى يرسل الإبل من الهفوف إلى ميناء العقير لاستقبال الضيف وحقائبه. يقول تشيزمان:" بقي عليّ فقط أن أبحر إلى العقير في بغلة، وهي مركبة بحرية عربية جميلة تستخدم لصيد اللؤلؤ والتجارة في الخليج العربي"(١٦).

وجد "تشيزمان" أمير العقير في انتظاره على رصيف الميناء، وأخذه إلى منزله في مقر الإمارة لتناول القهوة، حيث قدم له جنديين من جنود أمير الأحساء كانا قد أحضرا الإبل لنقله إلى الهفوف، ولكنه نجح في تأجيل ذلك لمدة يومين للقيام ببعض مهام الرحلة الضرورية الخاصة بجغرافية المكان ؛ لأن العقير قد وضع بشكل مؤقت على الخرائط ولكنه – حسب قوله – لم يحدد أبدا بطريقة صحيحة.

المشكلة التي كان يخشاها ويحسب لها ألف حساب أن يثير الشك في النفوس بعمل يعد خارج إطار المهمة المعلنة، التي سمح له الملك عبد العزيز بالقيام بها داخل مناطق نفوذه في شبه الجزيرة العربية، فتنتهي الأمور نهاية لا يحمد عقباها، خصوصا وأن الأجهزة التي أحضرها لحساب الاتجاهات وإعداد الخرائط الدقيقة، هذه الأجهزة – على حد قوله – شكلها مخيف ومريب لمن لا يفهم الغرض منها، ولكنه استطاع بلباقته أن يقدم الموضوع على أنه جزء ضروري من عملية جمع عينات الطيور والحيوانات(١٧).

ويلفتنا هنا أمران: الأول حرص جميع الرحالة – مع اختلاف أهدافهم – على إثراء علم الجغرافيا بوضع الخرائط الدقيقة لشبه الجزيرة العربية، والثاني حذرهم الشديد من إثارة غضب الملك أو أحد ممثليه أو أحد أفراد القبائل.

العقير وأبو زهمول:

وبطبيعة الحال فقد حرص "تشيزمان" على تقديم وصف لميناء العقير في ذلك الوقت، فيصفه بأنه ميناء رملي صغير، لا توجد فيه منشآت سوى مبنى الجمارك والقلعة، والسكان المقيمون ينحصرون في أمير العقير ومأمور المالية ومأمور الجوازات وكاتبه، ثم يستدرك قائلا:" إذا كان عدد السكان المستقرين قليلا، فإن المتنقلين كثر ومتنوعون. تأتي السفن عدة مرات في اليوم لتفرغ بالات من الملابس والأرز وبضائع تجارية أخرى متجهة إلى الداخل، وتحزم كل هذه الأشياء في رزم

ملائمة للنقل على الإبل أو الحمير. تغدو مجموعات من من قوافل الإبل وفرق من الحمير البيضاء الكبيرة الأحسائية وتروح من وراء التلال الرملية حاملة أثقالا مذهلة ومطوقة بالطرود المنزلية حتى إنك لا ترى منها إلا الأذنين والأرجل فقط. باستثناء موسم التمر، عندما يتوفر للتصدير قليل من بالات تلك الفاكهة الزائدة، فإن الاستيراد يزيد على التصدير كثيرا وهذا الأخير قليل جدا. لا تنتج الصحراء إلا القليل مما يحتاجه العالم الخارجي "[١٨].

وكلام "تشيزمان" السابق فيه نظر من عدة أوجه، فهو لم يقم في العقير سوى يومين أو ثلاثة، فكيف استطاع أن يحكم على النسبة العامة بين الواردات والصادرات؟!... لم تكن الثروة البترولية قد لعبت دورا في هذا الوقت المبكر، والنظام الاقتصادي العالمي لم يكن متطورا بالدرجة التي نشهدها اليوم، وكانت التجارة تقوم – بلا أدنى شك – على مبدأ المقايضة، وبمعنى آخر يجب أن تكون هناك صادرات حتى تكون في مقابلها واردات وبنسب متقاربة. من المؤكد – إذن – أنه لم يستطع إصدار حكم صحيح على صادرات شبه الجزيرة العربية، نظرا لضيق الوقت الذي تلعب فيه الصدفة دورها.

وكلامه عن السكان المقيمين أيضا فيه نظر، بل يفتقد المنطق الذي تفرضه طبيعة الحياة، فلابد من وجود حامية تقوم بحماية الميناء بعد خضوعه لنفوذ الدولة السعودية الثالثة، ولا بد من وجود عمال وموظفين مساعدين للأمير ومأمور الجمرك وغيرهما من المسئولين عن إدارة الميناء، خصوصا وأنه كانت هناك تنظيمات إدارية سابقة في العهد العثماني القريب، وقت أن كان الميناء خاضعا لنفوذ الدولة العثمانية[١٩]، وهذا يتطلب وجود حد أدنى من الخدمات اليومية التي يقوم عليها عدد كاف من الأفراد. فضلا عن أن كثافة التجارة المارة بالميناء تغري الكثيرين بالتواجد المستمر لأداء الخدمات للقوافل.

إن كلام "تشيزمان" في هذا الشأن يثير كثيرا من التساؤلات أكثر من الإجابات التي يقدمها.

ولكنه في المقابل يقدم لنا كثيرا من الإيجابيات التي لم يكن في مقدور شخص آخر أن يقدمها...

فقد وصف جواز السفر وقتها، وأنه كان يشتمل على بيانات حامله ما عدا صورته الشخصية، لعدم توفر كاميرات التصوير. ووجود هذه الوثيقة الرسمية يدل دلالة واضحة على استقرار النفوذ السياسي للدولة على أراضيها، ويؤكد هذا بقوله:" منذ لحظة نزولي في العقير، وأنا في أرض عاهل مستقل عن أي دولة مجاورة أو قوة أجنبية"(٢٠). من الواضح أن الرجل لديه وعي سياسي واجتماعي كاف لتكوين انطباعه هذا.

كما أنه في هذه الساعات المعدودة التي قضاها في العقير اقترب من حل لغز حير الباحثين التاريخيين والأثريين والجغرافيين، فأثناء بحثه عن الطيور وجد نفسه وسط حقل خرب واسع، انتشرت فيه أكوام من الحطام وفخار مكسر ذي طلاء أزرق ومتعدد الأشكال. يقع الحقل الخرب في العقير على بعد ميل تقريبا من ماء البحر، وأدرك – بحسه الجغرافي – أن طبيعة الأرض توحي بأنها ربما كانت عامرة في يوم من الأيام. هذا ما جعله يقول:" وتكوّن لديّ كل المبررات للاعتقاد بأنني عثرت على موقع الجرهاء الميناء الفينيقي القديم. موقع الخرائب في أبي زهمول – (اسم الحقل الخرب) – هو تماما موقع الجرهاء الذي أشار إليه بطليموس ونشره في قائمته الجغرافية حوالي منتصف القرن الثاني بعد الميلاد"(٢١).

الطريق إلى الهفوف:

"غادرنا العقير عند شروق الشمس يوم التاسع عشر من نوفمبر لنجتاز أربعين ميلا من الكثبان الرملية الناعمة إلى الجشة(٢٢)، أول قرية في واحة الأحساء. يعتبر هذا أفضل ترتيب لأنه يبقي ساعتين فقط من المسير إلى الهفوف في اليوم التالي"(٢٣).

بهذه العبارة بدأ "تشيزمان" رحلته من العقير إلى الهفوف، وهو عندما ينتقل من مكان إلى آخر لا ينظر إلى الطريق بعين المسافر الذي يعاني المشقة، ويتمنى أن يطوى الطريق طيا حتى يصل إلى بغيته، ولكنه يرصد معالم الطريق وتفاصيله بعين العالم الباحث المدقق. لذلك فإنه يتوقف عند تفاصيل علمية كثيرة يهتم بها الباحثون، ولكنها قد لا تهم معظم القراء الذين يبحثون عن الثقافة العامة ومتعة القراءة.

فهو – مثلا – يصف الطريق قائلا:" منطقة الكثبان الرملية تجعل السير كئيبا حيث لا وجود لطريق. ساعة بعد ساعة ونحن نلتف حول التلال الرملية ملازمين المنطقة المنخفضة تقريبا باتجاه الغرب مع ميل إلى الجنوب قليلا. تمتد الكثبان باتجاه الشرق والغرب وانحدار الجوانب خفيف من الشمال وحاد من الجنوب، مما يدل على أن معظم الرياح تأتي من الشمال، وأن الكثبان تتحرك باطراد في اتجاه الجنوب "[٢٤].

وهو يجول بنظره على جوانب الطريق طوال مدة السفر لتسجيل الظواهر الطبيعية والجغرافية، والتأكد من صحة ما جاء في المراجع والكتب التي تحدثت عن هذه المنطقة، ويرصد أنواع الطيور والحيوانات، ويتعجب من وجود بعض النباتات في هذه البيئة الصحراوية قائلا:" هناك شجرة واحدة تستحق الملاحظة طولها عشرة أقدام ويسميها العرب (العُشر)، وتسمى علميا (*Calotropis procera*)، فأوراقها الخضراء الكبيرة وعناقيد زهرها الأرجواني تشكل منظرا غير متوقع في صحراء من الكثبان الرملية، وأحسب أنها أكثر ملاءمة لغابة استوائية. لحاء شجرة العشر مكسو بغطاء كثيف من عروق الفلين، وعندما يكسر الساق ينساب منه سائل أبيض ولزج"[٢٥].

بل إنه يهتم بتقدير سرعة الحيوانات المصاحبة للقافلة في الطريق، فيقدر سرعة الحمير بمشيتها العادية السريعة قليلا بحوالي خمسة أميال في الساعة. كما أنه يمكن الحصول على الماء العذب في أماكن الاستراحات الواقعة في الطريق بالحفر قليلا في الرمل على بعد ثلاثة إلى أربعة أقدام[٢٦].

وأخيرا... ظهرت واحة الأحساء، ولم يستطع "تشيزمان" إخفاء فرحته العارمة التي تظهر واضحة في قوله:" بالإضافة إلى الشعور بالفرح الكبير بعد ساعات عديدة من النظر المقيد بمنظر الكثيب الأصفر القادم على بعد (٤٠٠) ياردة في أي اتجاه، فإن النظرة الأولى نحو واحة الأحساء تصدم الإنسان فعلا بجمالها "[٢٧].

ثم يصف المنظر العام للواحة قائلا:" من بعيد هناك منظر داكن لثلاث أو أربع سلاسل من التلال مرتفعة عن السهل، وكل واحدة طولها يقارب الميل وترتفع عن الأرض حوالي ٣٠٠ قدم. كان أطرفها إلى الجنوب يسمى جبل الأربع[٢٨]، له أربعة نتوءات صخرية صغيرة، وكل واحدة منفردة تماما عن الأخرى وعن الجبل نفسه. يقع جبل القاره[٢٩] إلى الشمال، وقد علمت عنه مسبقا حيث زاره الرحالة الألماني بوركهاردت في سنة ١٩٠٤م ووصف كهوفه. توجد مساحة مظلمة بين التلال، وهي منظر مألوف في الصحراء كحد فاصل للمناطق المزروعة ببساتين النخيل في الواحة "[٣٠].

ويضيف عبارة أخرى تكشف عن غزارة الخضرة في هذه الواحة قائلا:" كما أن القرى مطوقة جيدا بالأشجار الطويلة بحيث لا تستطيع رؤية أي شيء من الجبال المحيطة، وتصبح وكأنك في غابة استوائية"[٣١].

وانبهار هذا الرجل بواحة الأحساء أمر مستغرب حقا، فبلاده – كما هو معروف – تتمتع بكثير من الخضرة المدهشة، كما أنه قضى سنوات في الهند والعراق المعروفة ببلاد ما بين النهرين، وما أدراك ما بين النهرين من خضرة كثيفة !.. وتفسير هذا الأمر – في ظني – لا يخرج عن أنه انبهار العالِم وليس انبهار المسافر، فهذا العالم كان منبهرا بوجود هذه الواحة الجميلة في هذه الصحراء الجرداء.

ويشير "تشيزمان" إلى بعض القرى على الطريق قائلا:" مررنا بقريتي الجفر[٣٢] والفضول[٣٣] إلى اليسار قليلا من طريق الجشة – الهفوف، وقطعنا عدة

سهول مرتفعة، عرض أحدها ميلان وأرضه مرتفعة جدا على الري. استغلت تلك السهول أثناء الحكم العسكري التركي القديم حيث شيدوا بها حصونا مسورة بالطين والحجر، وأقاموا بها حاميات لحماية الطرق"(٣٤).

الهفوف:

وأخيرا تظهر الهفوف من بعيد بإطلالتها التي وصفها تشيزمان بقوله:" إن آخر سهل جيري هو ذلك الذي يمكن أن تشاهد في طرفه الأقصى أو الغربي منازل الهفوف وقبة المسجد ومنارته. كان منظرًا طبيعيًّا من البياض ؛ لأن لون حجر المنازل الرملي الجيري مثل لون المنطقة المحيطة به مع خلفية خضراء داكنة من النخيل، التي تروى من مجموعة مختلفة من العيون المتدفقة إلى الشمال والغرب من البلدة. بوابة العقير هي المدخل الشرقي للبلدة من خلال سورها المنيع، وهي من أكثر البوابات حركة ونشاطا، وعندما اقتربنا كان هناك سيل مطرد من الحمير المحملة وغير المحملة داخلة وخارجة منها"(٣٥).

أقام "تشيزمان" في الهفوف معظم فترة الرحلة من بدايتها إلى نهايتها، فقد وصلها في العشرين من نوفمبر ١٩٢٣م، ولم يستطع أن يغادرها إلا في الثامن من فبراير ١٩٢٤م. أي أنه قضى في الهفوف وحدها حوالي شهرين ونصف، في حين أنه لم يقض في أية محطة أخرى أكثر من يومين أو ثلاثة. ولأن ملابسه الأوروبية كانت ملفتة للنظر ومدعاة لفضول الناس وتوجسهم مما يعوق حريته في الحركة والتنقل، فقد فضل أن يرتدي اللباس العربي الشائع معبرا عن ذلك بقوله:" ومررت عبر الحشد المزدحم ولم يلاحظني أحد. كان (تغيير اللباس) راحة لي بعد التحديق المستمر الذي هو نصيب الشخص عندما يرتدي الملابس الأوروبية، وخفت مهمات حراسي بعد هذا التغيير"(٣٦).

ورغم أن تلك الإقامة الطويلة في الهفوف لم تكن مخططة، بل كانت نتيجة لملابسات عديدة بعضها يرجع للعوامل الطبيعية الخاصة بأحوال المناخ، وبعضها الآخر يرجع إلى بعض الظروف السياسية والأمنية... رغم ذلك فقد أتاح له استقراره في الهفوف هذه الفترة الطويلة نسبيًّا أن ينقل لنا صورة جيدة عن الأحساء عموما، من الناحية الطبيعية أو الإنسانية على السواء، زخر بها كتابه الدسم " في شبه الجزيرة العربية المجهولة".

ورغم أنه زار الأحساء للبحث العلمي، إلا إن كتابه لم يتم عرضه بالتصنيف والتبويب العلمي، بل كان أشبه بتدوين المذكرات الشخصية على هيئة يوميات تخضع للتسلسل التاريخي للرحلة، ولا تخلو أحيانا من بعض الاستطرادات المتعلقة بالموضوع، ولعل أسلوب العرض هذا هو الذي جعل كتابه ممتعًا إلى حد كبير لعامة القراء والمثقفين والباحثين، وضمه إلى مكتبة أدب الرحلات.

لذلك يجدر بنا التوقف مع الرجل خلال إقامته في الهفوف لنستمتع معه بوصفه للأحساء.

في مخزن البارود:

نظرًا للمتغيرات السياسية العنيفة التي سادت العالم وقت الرحلة، فقد اهتم "تشيزمان" في الصفحات الأولى من كتابه بالحديث عن الحالة السياسية داخل شبه الجزيرة العربية أثناء استعداده للرحلة، حيث وصفها بقوله:" لا بد أن يكون عالم الطبيعيات رجلًا موثوقًا فلا يرمي بشرر حتى ولو بطريقة عرضية في مخزن بارود السياسة العربية"(٣٧).

يصف "تشيزمان" الوضع السياسي قائلا:" قبل أن أتوغل في داخل هذا البلد سيكون من الأفضل أن أشرح وضع عبد العزيز بن سعود، سلطان نجد وملحقاتها – (لقب الملك عبد العزيز في ذلك الوقت) – لأولئك الذين ليسوا على دراية بأمور

الجزيرة العربية. منذ لحظة نزولي في العقير، وأنا في أرض عاهل مستقل عن أي دولة مجاورة أو قوة أجنبية. ينحدر السلطان الحالي من أسرة شيوخ عريقة، وبسياسته الحكيمة أقام مملكة واسعة وبسط نفوذه عليها"[٣٨].

ويعبر عن الطبيعة العنيفة للقبائل في شبه الجزيرة العربية بقوله:" فالقبائل التي تشكل أغلبية رعاياه هم الأكثر اعتزازًا واستقلالا، والأكثر صعوبة للسيطرة عليهم من أي من شعوب العالم القديم. كل قبيلة، أحيانًا أكبر بقليل من عائلة كبيرة، تكون عادة في صراع مع جارتها، فالمرعى لا يكاد يكفي لرعي القطعان ولا توجد حدود واضحة، ومن الطبيعي أن تحل مسألة الملكية بالحرب التي أصبحت حدثا سنويا، في حين أن سرقة الجمال أصبحت عادة"[٣٩].

ثم يعترف بنجاح الملك عبد العزيز في بسط نفوذ الدولة على هذه القبائل المتناحرة بقوله:" يُمنع القتال بين قبيلتين تابعتين للسلطان بدون إذنه، وهو الذي يملك الوسيلة لحل الخلاف بدون إراقة دماء. لا يجرؤ شيخ – (يقصد رئيس قبيلة) – على الخروج على النظام، وهو بدوره يعتبر ممثلا للحكومة المركزية ويعاقِب المتمردين بشدة. لهذا فإن السلام يسود البلاد بشكل لم يسبق له مثيل. الطرق التجارية الممتدة لمئات الأميال في الداخل آمنة للمسافر مثل طرق الريف الانجليزي. على النقيض من ذلك كان الحكم التركي (العثماني) للأحساء الذي أنهاه السلطان في ربيع ١٩١٣م"[٤٠].

وعندما نتعرض للوضع السياسي في الدولة السعودية لا نستطيع فصله عن الدين، وهذا شيء منطقي نظرا للخصوصية التي تتمتع بها الدولة السعودية وتتمثل في نزول الرسالة المحمدية ووجود البيت الحرام داخل أراضيها، إضافة إلى أن الدولة السعودية منذ نشأتها لم تقم إلا على أساس العقيدة الإسلامية الصحيحة التي نادى بها الإمام محمد بن عبد الوهاب[٤١].

وكذلك فعل "تشيزمان" وغيره، ولكنه – كغيره من أبناء الثقافات الغريبة عن شبه الجزيرة العربية – سرعان ما تختلط عليه المفاهيم ويخونه التعبير، فينظر إلى الأمور التي لا يفهمها على غير حقيقتها، فيقول مثلا عن الملك عبد العزيز:" وللسلطان سيطرة روحية على أتباع الطائفة بالإضافة إلى قيادته للأمور الدنيوية بوصفه شيخ مشائخهم أو السلطان(٤٢)، ولقد أهله لهذا الوضع شخصيته القوية وقابليته الفطرية للزعامة"(٤٣).

من الواضح أنه لا يستوعب جوهر العقيدة الإسلامية، وأنها ليست شعائر تعبدية فقط، وإنما هي منهج حياة يتبعه الحاكم والمحكوم، وعقاب الحاكم الذي يفرط في هذا المنهج أشد عند ربه من المحكوم.

وسبب سقوط "تشيزمان" – وأقرانه – في هذه الأخطاء واضح وبسيط، ويظهر جليا في قوله عن أحد أسباب اختياره غلامه "مهدي بن صالح" الذي أشرنا إليه سابقا:" ورغم أن مهدي من أتباع الرسول (صلى الله عليه وسلم) فإنه لم يكن من النوع الذي يسيطر عليه الهاجس الديني... كما أنه لم يكن من ذلك القسم الكبير من المسلمين الذين تهيمن عليهم رغبة الدعاء عندما يؤدون أعمالا دنيوية مثل حمل صناديق ثقيلة"(٤٤).

إن هذه العبارة تكشف ببساطة عن جهله بجوهر العقيدة الإسلامية ومرتبة الدعاء فيها ؛ لأنه لا يؤمن بالغيب وأن هناك إلها واحدا مشيئته غالبة في الكون. إن "تشيزمان" وأقرانه يعرفون أن النبات لا ينمو إلا إذا توفر شرطان: التربة الخصبة والماء، ولكنهم لا يعرفون من أين أتت التربة والماء، إن آخر علمهم يتوقف عند الأسباب ولا يصل إلى المسبِّب خالق الأسباب. لذلك فإنهم ينظرون للمسلمين على أنهم طائفة من الطوائف المنتشرة في العالم اختارت لها معبودا وزعيما، وأنها تتساوى مع الطائفة البوذية وغيرها.

لعل الإشارة السابقة تريحنا من عناء الرد وتصحيح المغالطات التي سقط فيها "تشيزمان" في كثير من فقرات كتابه، مثل قوله:" تعتبر الإخوانية (حركة الإخوان في عهد الملك عبدالعزيز لاعلاقة لها بجماعة الإخوان المسلمين) بعثا جديدا للوهابية وقد حلت محلها الآن"(٤٥). فكل من الوهابية والإخوانية ليست مذهبا أو عقيدة أو دينًا جديدًا، وإنما محاولة لإتباع صحيح الدين وتخليصه مما دخله من مظاهر الجهل التي تقود أصحابها إلى الشرك بالله، وأقصى ما يمكن وصفهما به التشدد في الأحكام.

وقوله كذلك:" تُجمع كل الطوائف الإسلامية الأخرى – (يقصد من غير الوهابيين والإخوان) –مثل السنة والشيعة مع الهندوس واليهود والنصارى بوصفهم كفارا. لهذا فإن لدى السلطان خيار واسع من مواضيع الاختلاف التي يمكن أن تثير الجهاد أو الحرب الدينية"(٤٦). والعبارة تظهر الجهل المطبق بإخراج الوهابيين والإخوان من زمرة السنة، كما تحمل اتهاما واضحًا للملك عبد العزيز باستغلاله الدين في إشعال الحروب الدينية، حيث يتناقض المؤلف مع نفسه عندما وصف جلالته في موضع سابق بقوله: "حوّله هذا الإنجاز سريعا إلى رجل دولة بخلاف كثير من أعيان الشرق الميالين – كسياسيين – لإشعال غضب جزء من المجتمع فقط ليجدوا الحريق يخرج عن سيطرتهم. هذا الغضب الذي يريدون توجيهه لمصلحتهم غالبا ما ينقلب ضدهم ويدمر المجتمع الذي لا يكون هذا الجزء – الذي يراد إشعال غضبه – إلا قسما منه"(٤٧).

على أية حال فإن "تشيزمان" يجيد عندما يصف الواقع المحسوس أمامه، بل ولديه تفسير صائب لكثير من الظواهر البعيدة عن العقيدة الإسلامية التي لا يفهمها.

في ضيافة الأوتوقراطي العجوز:

وخلال إقامته في الهفوف لقي التكريم المعتاد في محطات إقامته بصفته ضيفا مرحبا به من سلطان البلاد، حيث استقبله أمير الأحساء " عبد الله بن

جلوي"[٤٨] مرحبا به في مجلسه، قبل أن ينتقل إلى المنزل المعد لضيافته. ولأنه قضى فترة رحلته تقريبا في الهفوف فقد سنحت له الفرصة لتكوين انطباعات قوية عن شخصية الأمير، وأفرد له فقرات عديدة من كتابه يجب أن نشير إليها لأنها تعطي صورة واضحة للحالة السياسية في شبه الجزيرة العربية آنذاك.

يصف "تشيزمان" لحظة دخوله مجلس الأمير قائلا:" كانت غرفة الاستقبال الكبيرة العلوية مزدحمة بالجنود ورجال الحاشية حول الجدران، وكل منهم يحمل سيفا عربيا محدبا ذا غمد فضي مرصّع. كان يجلس في صدر المجلس رجل عربي قصير عريض المنكبين في أواخر الخمسين من عمره هو الشيخ عبد الله بن جلوي أمير منطقة الأحساء وابن عم السلطان "، ويكمل وصفه قائلا:" كانت ملابسه أنيقة ولكنها بسيطة جدا ما عدا أن غمد سيفه مرصع بالذهب. من الواضح أننا جئنا إليه وهو منهمك في عمله اليومي، وبرغم ذلك نهض لمصافحتي وأجلسني على كرسي بجانبه، وبكلمة واحدة أخلى المكان من الجميع ما عدا الجنود"[٤٩].

ويقول في فقرة أخرى:" سأل الشيخ عبد الله – كما يسميه البدو والحضر – بأدب وعاطفة شبه أبوية عن صحتي وصحة السيد برسي كوكس، وأعطى تعليمات إلى محمد أفندي[٥٠] ليهتم بي خلال إقامتي، وبعد تناول القهوة أخبرني عن بيت الضيافة الذي أعد لإقامتي "[٥١].

ويحكي عن تبسط الأمير معه بسؤاله في اليوم التالي عن المصائد التي جلبها معه وكيفية عملها في صيد الحيوانات، مستطردا:" لا يهتم الأمير نفسه بالرياضة، والحقيقة أنه دائما في مقر الإمارة ولا يُرى في البلدة أو حولها. كان استجمامه الوحيد هو الحضور للمسجد الوهابي لأداء الصلوات الخمسة والتي يتوقع أن يحضرها كذلك جنوده وموظفوه. أخبرني جنوده بأنه منذ أصبح أميرًا للأحساء قبل عشر سنوات لم يغادر بلدة الهفوف باستثناء رحلة للعقير قبل مجيئي ببعض الوقت "[٥٢].

والكلام السابق واضح المعنى والمغزى فيما يختص بالصفات الشخصية لأمير الأحساء عبد الله ابن جلوي، من: سلامة القلب والجوارح، والهيبة والانضباط، والحكمة والحزم. وهذه شهادة محترمة من رجل غريب عن البلاد ينقل ما شاهده إلى أهل جلدته.

واستكمالا لحديثه حول الحالة السياسية، فإنه قد أتيحت له الفرصة ليشهد زيارة الملك عبد العزيز للأحساء في وجود الأمير عبد الله بن جلوي، ورغم أنه قد رآه في العقير قبل ثلاث سنوات(٥٣) في أحد الاجتماعات مع السير " بيرسي كوكس "، إلا إن هذه المرة كانت تتميز بوجوده ضيفا لجلالة الملك، مما أتاح له أن يلمس الجانب الإنساني لدى جلالته عن قرب، لدرجة أنه أفرد له فصلا كاملا من كتابه بعنوان " مع السلطان في الهفوف "(٥٤).

بدأت الزيارة في الخامس عشر من شهر يناير ١٩٢٤م، حيث وصل السلطان قبل الغروب بساعتين ومعه ٣٥٠ جملا بالإضافة إلى الحاشية والجنود. لم يشاهد " تشيزمان " وصول الموكب لدخوله من بوابة أخرى، ولكن الخدم أخبروه أن السلطان بنشاطه وحيويته المميزة قد عقد مجالس استقبال حتى ساعة متأخرة من الليل، وأن ابنه فيصل – الملك فيصل – كان معه، وأشار " تشيزمان " إلى معرفته السابقة به قائلا:" كنت قد قابلته منذ حوالي خمس سنوات عندما كان طفلا رزينا موفور الكرامة يرأس البعثة التي أرسلها والده إلى لندن "(٥٥).

وفي صباح اليوم التالي توجه " تشيزمان " – حسب الترتيبات – مرتديا زيه العربي لتقديم التحية إلى الملك عبد العزيز الذي كان ينزل في قصر أمير الأحساء، حيث يصف ذلك المشهد بأن السلطان كان يجلس على المقعد الذي اعتاد أن يشغله الشيخ عبد الله، وكان يتوقع أن يراه جالسا بجانب السلطان، ولكنه لم يره فظن أنه لم يحضر المجلس. وعندما أشار فيما بعد إلى غيابه لخادمه المرافق تعجب وأخبره أن

الشيخ عبد الله كان موجودا، حيث كان يجلس على الأرض بالقرب من أحد أبواب المدخل. يقول " تشيزمان " معلقا:" يمثل هذا الانطفاء الكامل لشخص بارز عند وصول آخر أبرز منه مظهرا رائعا للمجتمع العربي. إنه لا يحتل المكان الثاني، ولكنه يختفي تماما "[٥٦]. ولشعوره بالخجل من عدم التنبه لوجود الرجل حاول زيارة الشيخ عبد الله في منزله أثناء زيارة السلطان للأحساء، ولكن الأمر لم ينجح مما كان مدعاة لأسفه الذي عبر عنه بقوله:" ولذا فقد انتهى الأمر إلى أنني لم أر الشيخ عبد الله أبدا مرة أخرى، وقد كان ذلك مدعاة أسف حقيقي لي، ذلك أني قد حملت قدرا عظيما من الاحترام للأوتوقراطي[٥٧] الداهية العجوز "[٥٨].

ويحكي " تشيزمان " عن لقاء آخر مهم يوم السادس والعشرين من يناير ١٩٢٤م، حيث وصله قبل اللقاء عدد جريدة " التايمز " البريطانية ليوم الثالث عشر من ديسمبر من العام الفائت حاملا معه نتائج الانتخابات كخبر جديد ينقله لجلالته، قائلا:" أشبعت غروري بعد ظهر هذا اليوم، عندما تلقيت دعوة السلطان، بأنني سأكون أخيرًا قادرًا على أن أقدم له بعض الأخبار، إلا إنه كان قد قرأها كلها في صحيفة من دمشق، وصلت بالبريد البري عبر بغداد. ردا على سؤالي إن كان يحمل أية أخبار طيبة لي، قال السلطان إن لديه بعض المقترحات. قال إن رحلة يبرين[٥٩] ممكنة، وسيرتب لذهابي إلى هناك حالما تصله تقارير عن وجود مراعي كافية، أما المنطقة التي تقع جنوب يبرين فهي خارج النقاش، وسيكون لزاما عليّ أن أعود إلى الهفوف. الوضع السياسي حول عسير واليمن جعل من المستحيل عليه أن يرسلني عن طريق ساحل البحر الأحمر، كل شيء منقلب رأسا على عقب كما قال، مشددا على ذلك بتكوير إحدى قبضتيه فوق الأخرى. بيّن لي أن علاقاته مع الحجاز ليست جيدة[٦٠]، وكان يخشى أن تكون الأوضاع على حدود عسير غير آمنة لمسافر، ولذا فهو لا يستطيع أن يضمن لي مرورًا آمنًا إلى بلاد الإدريسي[٦١]. على الرغم من أنه هو ويحيى إمام اليمن[٦٢] كانا كالأخوين (مبرهنا على احترام بعضهما بعضا عن طريق

وضع الأصابع الأولى من كل يد معا، كما يفعل كل العرب عندما يتحدثون عن الأصدقاء)، إلا إن حكومة يحيى لم تكن قوية بدرجة كافية لتسيطر على قبائل الجبال النائية التي لا بد لي من المرور بأراضيها "[٦٣].

وقبل أن نختم هذا الجزء يجدر بنا أن نشير إلى ملاحظة ذكية أبداها تشيزمان، تلخص انطباعاته عن شخصية الملك عبد العزيز وشخصية الشيخ عبد الله بن جلوي أمير الأحساء، مع إعجابه بكلا الشخصيتين، حيث قال:" كان الجنود يتحدثون كيف أن الشيخ عبد الله انضباطي، وأكثر صرامة بالمقارنة مع السلطان. لقد كان الرجل القوي في الامبراطورية التي بناها السلطان وأحد أعمدتها الرئيسة. وقد لاحظت في حادثة معينة الفارق بين الاثنين. كان السلطان عند زيارتي الثانية له قد أبلغ المسؤول عن تقديم الشاي ألا يضاف إليه السكر ؛ وذلك لأن الإنجليز يحبذون أن يضعوا لأنفسهم السكر والحليب. جاء الشاي في المناسبة التالية كالسابق مضافا إليه السكر والحليب مسبقا، وما كان لي أن ألحظ ذلك لولا أن السلطان وبخ خادمه على نسيانه، بينما لو كان الأمير هو الذي أمر بفصل السكر والحليب لكانت تعليماته قد اتبعت بشكل تام"[٦٤].

إعجاب وإحباط:

رغم أن القضاء البريطاني معروف بتطوره وتميزه على مستوى العالم فلم يستطع تشيزمان أن يخفي إعجابه بالقضاء في الأحساء، الذي كان صورة للقضاء في الدولة السعودية آنذاك، ولم يستطع أيضا – كما أشار سابقا – أن يخفي شعوره بالإحباط من بطء إجراءات التقاضي في بلاده، الذي ينعدم معه الشعور بتحقق العدالة السريعة. وهو يعبر عن ذلك بقوله:" لم يتوقف هدوء أهل هذه البلدة ومثابرتهم أبدا عن إثارة إعجابي. قد يكون السبب في ذلك هو أن نظام الضرائب سهل وليس هناك تشدد في تطبيقه كما أن آليته غير معقدة أو متعبة للعقل الشرقي. مرة أخرى

فكل الأحكام منوطة بالشيخ عبد الله فهو قاضي المرافعة وقاضي الاستئناف. كان قضاؤه عادلا فالحكم يتبع استماع الحجج وتنفيذ الحكم يعقب ذلك سريعا "[٦٥].

لذلك فقد كان حريصا على رصد الأحكام القضائية التي حضر تنفيذها، ومنها قوله:" شاهدت اليوم الأحد، ٢٥ نوفمبر، مثالا على كيفية عمل النظام القضائي للشيخ (الأمير) عبد الله. كانت إحدى القبائل قد غرمت ٦٠٠ جمل لتقاتلها مع قبيلة أخرى، وقد وصلت اليوم إلى ضواحي الهفوف الـ ٦٠٠ جمل بالإضافة إلى الأغنام التي حكم عليها تسليمها. كان جميع الجنود منشغلين تماما بهذا الأمر، وفي نفس الوقت جاءت إخبارية بأن قرويا قد سرق جملا وحمارا، لهذا اضطروا إلى استدعاء بعض مساعديّ فاستُدعي محمد حسن – (أحد الجنديين المرافقين له) – ليذهب ويبحث عن اللص ويحضره"[٦٦]. ومن المستغرب حقا إرسال جندي واحد للبحث عن اللص وإحضاره، مما يدل على هيبة ممثل القانون في نفوس الجميع وشعورهم بمغبّة العصيان أو محاولة التهرب من المثول أمام المسئول.

ويحكي واقعة أخرى حدثت أثناء وجود الملك عبد العزيز في زيارته المذكورة للأحساء قائلا:" كان سوق الخميس مزدحما أكثر من العادة، وبسبب وجود جمع مترقب على كلا جانبي بوابات الكوت فقد اعتقدت أنهم كانوا ينتظرون رؤية السلطان، لكن بين لي الجندي أبو سعود أن الحشد كان ينتظر رؤية رجل أدين بالسرقة من دكان في السوق، وصدر الحكم من قبَل السلطان بقطع يده، ومن ثم عرضه في السوق كرادع لمن ينوي السرقة من الآخرين[٦٧]. ذكرني الحشد الذي تزايدت أعداده بسرعة بعملية إعدام في تاورهل[٦٨]. كانت أفضل أماكن المشاهدة ونقاطها ذات الرؤية الجيدة مزدحمة ثلاثة أضعاف أو أربعة، وبين الحين والآخر كان المسئول عن الباب يخرج حاملا عصاه وبكامل هيئته الرسمية ليطرد أولئك الذين كانوا أصغر منه في المكانة أو الموقع تاركا بتعقل الآخرين لشأنهم. ولكن كان مقدرا للحاضرين على أية حال أن يصابوا بخيبة أمل إذ أشيع أن السجين كان يقذف بنفسه بعنف على جدران

السجن، وأن السلطان تبعا لذلك قد أجل تنفيذ الحكم حتى يتمكن الرجل من تقديم شهود يثبتون أنه قد ظهرت عليه علامات جنون في أي مناسبة سابقة. أمكن تقديم الإثبات المرَضِيّ وغُيّر الحكم إلى النفي، ولذلك فسيؤخذ الرجل الآن على ظهر حمار تحت حراسة جندي إلى العقير، ثم يوضع في مركب متجه إلى بلاد أخرى. كانت هذه محاكمة وحكما نموذجيا من قبَل رجل قُدّم على أنه قاس ووحشي ومتعصب. لقد بدا لي الحكم على أنه قرار عدالة جيد التوازن وملطف بالرحمة. قد يبدو لنا أن قطع اليد عقوبة بدائية اليوم لكنه مقبول بشكل عام في النظام القضائي العربي إضافة إلى قبوله من معظم الحكام الشرقيين. ولا بد لي هنا من القول أن مصطلح السجن مجردا لا ينظر إليه من قبَل رجال القبائل الغلاظ بنفس درجة الخزي في الحضارات الحديثة الأكثر تقدما، ولذلك يصبح من الضروري البحث عن وسائل أكثر شدة إذا أريد للردع أن يكون فعالا "[٦٩].

ولا حاجة بنا إلى الكثير من الرد على بعض آراء المؤلف في عبارته السابقة؛ لأنه يتناقض مع نفسه في وصف الملك عبد العزيز بالقسوة والوحشية والتعصب ثم يشيد بحكمه مدللا على حكمة المشرع في تغليظ العقوبة. وفي نفس الوقت يظهر جهله بأحكام الشريعة ويظن أنها قانون وضعي من الحكام، إضافة إلى الشعور بالاستعلاء الذي يشيع في كلماته وهو يصف حضاراتهم بأنها الأكثر تقدما، ولعله يعني بذلك التقدم العلمي وليس الإنساني، فشتان مابين قوانين البشر وقوانين السماء !... فأيهما المتحضر: من يخضع لغيره من البشر وإن كان عالما في علوم الفضاء أم من يخضع للخالق الواحد الأحد وإن كان إنسانا بسيطا يكدح لكسب قوت يومه؟... ولكن أنّى يفهم هؤلاء ما نقول؟! لقد وصف رجال القبائل بأنهم غلاظ، والأرجح أنه يقصد أنهم غلاظ القلوب متوحشون لا يشعرون بخزي السجن، ولعله قصد الخشونة التي استمدوها من بيئتهم القاسية، ولكنه خلط بين الخشونة في التعامل وغلظة القلب والطباع رغم شهادته لهم بكرم الضيافة، وأما عدم الشعور بخزي السجن فليس ناشئا

عن غلظتهم كما أشار، بل من عدم تأثر الحقوق الاجتماعية – آنذاك – للإنسان العربي بقضائه فترة في السجن كما هو حادث الآن.

كل هذا لا يحتاج منا إلى عناء للرد عليه فهو واضح لكل من له قلب سليم، ولكن الغريب في هذه الرواية حقا هو أنه لم يكن هناك فاصل زمني بين المشهد وإصدار الحكم النهائي رغم أن المؤلف قد أشار إلى أنه قد تم إرجاء الحكم حتى يتم التأكد من الحالة العقلية للسجين، ومن المحتمل أنه قد عرف فيما بعد النتيجة ثم حكى حكايته مكتملة وكأنها حدثت في مشهد واحد متصل، إلا إذا كان – وهذا مستبعد – هناك من الجمهور من شهد بجنون المتهم في حينها وقبلت شهادته. وسبب اهتمامنا بهذه الجزئية أن المؤلف تخلى هنا – على غير عادته – عن استقصاء التفاصيل والجزئيات الذي عودنا عليه في تحليل الظواهر والأحداث بحكم عقليته العلمية.

ألوان الهفوف:

عندما اقترب " تشيزمان " من الهفوف وصف منظرها العام من بعيد قائلا:" كان منظرًا طبيعيًّا من البياض ؛ لأن لون حجر المنازل الرملي الجيري مثل لون المنطقة المحيطة به مع خلفية خضراء داكنة من النخيل"(٧٠).

من هذا الوصف يمكن تخيل لوحة الألوان الطبيعية الأساسية في الهفوف، وأنها كانت تتمثل في الأبيض والأخضر إضافة إلى زرقة السماء بطبيعة الحال.

فالمباني كانت تتميز باللون الأبيض لاستخدام الخامة الطبيعية الموجودة في البيئة المحيطة، وهي الحجر الرملي الجيري، ويعبر " تشيزمان " عن ذلك بقوله:" مواد البناء في متناول اليد بالإضافة إلى توفر الموارد من تلال الحجر الرملي الجيري حيث يمكن اقتلاع كتل حجرية جيدة من الصخر الأبيض من أي مكان في السهل ". ويصف طبيعة البيوت العربية بقوله:" معظم غرف البيوت العربية محدودة في عرضها بطول جذوع النخيل التي تصف جنبا إلى جنب من الجدار إلى الجدار لتحمل

السقف"[٧١]. ونستشف من هذه العبارة العدد الهائل من أشجار النخيل في المنطقة، لدرجة الاعتماد علي الفائض منها في البناء، ونقول (الفائض) لأنه ليس من المعقول ولا المنطقي تقديم الإنسان حاجته للبناء على الغذاء.

على أن هذا لم يمنع العقل العربي، الذي كان – بلا شك – هو الذي وضع طرازه المعماري الخاص، من تشييد المباني الواسعة متغلبا على قصور الخامات الطبيعية المتمثلة في جذوع النخيل محدودة الطول، كما لا حظ " تشيزمان " في بيت أمير قرية الجشة التي تقع شرق الهفوف، حيث يصفه بقوله:" كانت غرفة الضيوف واسعة بالنسبة للمباني العربية فعرضها ١٨ قدما وطولها ٣٠ قدما. يحمل الامتداد الكبير للسقف المنبسط بواسطة ثلاث دعامات من جذوع النخل الطويل موضوعة بشكل مواز للجانبين الطويلين، ومدعمة عند أطرافها الغليظة بقوسين من الحجر الجيري ملحمين بجدار المبنى (وغير مدعم من الأرض أو بواسطة دعامات حائطية) وتتقوس فوق عرض الغرفة مذكرة بطراز الأديرة ". ثم يعلق على إحدى خصائص العمارة في ذلك الوقت قائلا:" نحن الآن في بلد يلعب فيها القوس دورا مهما في العمارة مع أن نوع القوس قد يكون بدائيا بعض الشيء"[٧٢]، ويضيف بعض التفاصيل عن طريقة صنع القوس قائلا:" تشكل الأقواس من جذعي نخلة يوضعان على دعائم مائلة أحدهما تجاه الآخر حيث يلتقيان في الوسط ويشكلان السقف. لهذا فإن هذا النمط الجديد للقوس المدور والمزود بحجر عقد، سيخلق هنا نمطا معماريا يرتبط بحكم عبد العزيز، السلطان الحالي "[٧٣].

وهو يقدم وصفا عاما لطراز العمارة في المنطقة قائلا:" تبنى البيوت من كتل من الحجر الرملي الأبيض، واجهاتها مطلية بطلاء من الحجر الرملي، ولها أسقف مستوية من الخشب، وجدرانها مغطاة بالطين، ولم أشاهد مباني من الآجر المحروق"[٧٤]. ولعل الجملة الأخيرة تشير إلى أسلوب البناء في بلده بريطانيا أو في إحدى مستعمراتها، ولم يجده في الأحساء نظرا لاختلاف البيئة والخامات الطبيعية

الشائعة، والأرجح أن الطين كان يغطي الجدران الداخلية وليس الواجهات، وإن كان لم يوضح ذلك بالتفصيل إلا أنه يفهم من كلامه.

أما عن التصميمات الداخلية للبيوت فيمكن أن نستدل عليها من وصفه للبيت الذي خصص لضيافته في الهفوف، حيث يصفه بأنه " يتكون من الفناء المغلق العادي وعلى جانبي الباب غرفتان كبيرتان، إحداهما معدة لعمل القهوة مع موقد صغير في الوسط، وفي الأخرى وجدت صناديقي قد وضعت ومهدي مرهقا ومستلقيا في زاويتها. كان سكني في الغرفتين العلويتين والوصول إليهما عن طريق الفناء بواسطة درج من الحجر الرملي. يؤدي هذا الدرج كذلك إلى شرفة عريضة على طول المنزل مدعومة بصف من أقواس مبنية من الحجر الرملي، يتكون أثاث إحدى الغرف – التي يوجد سرير سفري فيها – من كرسي ومقعدين طويلين وطاولة وزجاجة ماء للحمام وكأس. رتبت الغرفة الأخرى على الطريقة الشرقية كغرفة استقبال، فالأرضية مفروشة بالسجاد والوسائد مصفوفة حول جدرانها "[٧٥].

بين البدو والحضر:

ومن حديثه على مدار صفحات الكتاب نستطيع أن نستشف التركيبة السكانية للمجتمع الأحسائي بشكل عام. فأفراد القبائل المنتشرة في الصحراء هم البدو، وساكنو المدن والقرى هم الحضر، وقد أشار سابقا إلى النظرة الدونية المتبادلة بينهما، وسببها – في اعتقادنا الشخصي – راجع إلى طبيعة الشخصية المستمدة من البيئة. فالصحراء تمنح البدوي شعورا بالحرية المطلقة التي لا يرضى عنها بديلا، ويدفعه هذا إلى الشعور بالاختناق والتقييد داخل مجتمع المدينة المثقل باللوائح والقوانين والعلاقات الاجتماعية المعقدة، فينظر إلى هؤلاء نظرة يملؤها التعالي والتعفف عن هذه الحياة الكئيبة التي يعيش فيها الإنسان مقيدا بالمجتمع والأرض. وعلى العكس من ذلك فمجتمع المدينة والقرية يوفر لأهله من الحضر شعورا بالاستقرار، لارتباطهم بالأرض

حتى أصبحوا جزءا منها وأصبحت جزءا منهم، وصاروا أشبه بأشجارهم ونباتاتهم التي أنبتتها الأرض، ويكون مصيرها الموت إذا اقتلعت من تربتها. هذا فضلا عن الأمان الذي يشعرون به في بيوتهم الحجرية وسط عدد كبير – نسبيا – من الأقارب والجيران الذين ينتظمون داخل أعراف ولوائح وقوانين تحميهم من سطوة الغير. كل هذا يجعل الحضر ينظرون إلى البدو على أنهم مشردون لا وطن لهم، تكتنفهم أخطار الصحراء من كل جانب.

وقد أكد تشيزمان هذا المعنى الذي ذهبنا إليه عندما صور عدة مجموعات من الإخوان رآهم يتجولون في سوق الهفوف قائلا:" الإخوان ذوو وجوه صارمة، ويبدو أنهم يشعرون بلإهانة التي فرضها عليهم قدرهم القاسي وأجبرهم على ترك جو الصحراء الطاهر ليختلطوا مع سكان بلدة الأحساء المرحين من أجل الحصول على مجرد ضرورات الحياة "[٧٦].

ولعل هذا يفسر استعانة الملك عبد العزيز بالإخوان كقوة عسكرية ضاربة، ومحاولته لمّ شتاتهم بتوطينهم في هجر تحفظ لهم المواصفات الأساسية لبيئتهم الطبيعية، فلا تتبعثر قوتهم في التحرك العشوائي، ولا تتولد المشاكل عند إقامتهم في مجتمع حضري. ولعل هذا أيضا ما دفع تشيزمان إلى القول:" قبل أن أترك الوهابيين[٧٧] لا بد أن أذكر الإخوان، وهم فرع من تلك الطائفة أكثر تقشفا ؛ لأن أنشطتهم غالبا ما تذكر في الصحافة الأوروبية. أسس هذا المجتمع من قِبَل السلطان العظيم نفسه الذي أظهر عبقرية في تسخيرهم والتحكم بطاقة هذه المجموعة غير المنضبطة. حوله هذا الإنجاز سريعا إلى رجل دولة"[٧٨]. ويؤكد هذا المعنى في موضع آخر قائلا:" حولت حركة الإخوان هذه المجموعة المضطربة إلى قوة عسكرية تتحكم بها الدولة تقريبا لخدمتها، وكان مجندوها دائما على أهبة الاستعداد"[٧٩]، فالسلطان " يستطيع أن يستدعي أعدادا كبيرة من الإخوان للخدمة الفعلية خارج مناطقهم القبلية. في وقت السلم يعودون إلى خيامهم، وبما أن الحكومة لا تدفع لهم

مرتبات، فهم لا يشكلون عبئا على الدولة "[٨٠]. وإذا كان المؤلف قد انبهر بإدارة الملك عبد العزيز للمشهد فقد غاب عنه أن يعبر عن دهشته لعدم تقاضي أفراد هذه القوة العسكرية الضاربة مرتبات تعينهم على الحياة.

ونختم هذه الفقرة بعبارة مهمة للمؤلف يقول فيها:" يقوم السلطان بجهود عظيمة ليغري قبائله البدوية بهجر عاداتهم، وتبني مهن الزراعة والحياة المستقرة الأكثر سلمية "[٨١]. وأهمية هذه العبارة تكمن في أنه لا يمكن لحضارة أن تستكمل جانبها المادي دون حياة مستقرة، والزراعة – تاريخيا – هي بداية الاستقرار، ولا شك لدينا أن الملك عبد العزيز قد أدرك هذه الحقيقة في وقت مبكر، وعرف أهمية ذلك في تطوير إدارة الوقت والجهد لهذه القبائل وحياتها القلقة. لم يكن هذا الرجل يفكر في السيطرة على مناطق نفوذه بقدر ما كان يفكر في إحداث نقلة نوعية للإنسان في شبه الجزيرة العربية، ولا نكون مبالغين إذا قلنا بأنه كان من القلائل الذين يمتلكون القدرة على الرؤية وتحقيقها، وبعبارة أخرى كان يملك النظرية والقدرة على التطبيق.

وبالنسبة للتركيبة السكانية لمدينة الهفوف فإن المؤلف يصفهم بأنهم " يتكونون في الأساس من طبقتين: أسر الشيوخ (الأمراء) وأسر أخرى مالكة للأرض، ومع أنهم متعلمون إلا أنهم ينظرون بدونية إلى العمل المكتبي وكأنه عبودية. الطبقة الأخرى تتكون من الفلاحين أو العمال وهم غير متعلمين. من الصعب جدا إبعاد أحد أفراد الأسر التجارية المحلية عن شئونه الخاصة ليرضى بوظيفة حكومية "[٨٢].

الحياة في الهفوف:

"ليالي الهفوف هادئة، ويكسر السكون قبل الفجر فقط أنين دواليب الماء وصريرها في المزارع على بعد حوالي نصف ميل متبوعة بصوت غروب الماء عندما تصل القمة وتفرغ ماءها في الحوض. يأتي بعد ذلك الطرْق طاخ، طاخ، طاخ على الأبواب الخشبية الثقيلة لأحد الدكاكين المقابلة، ويأتي بعد ذلك صوت ينادي: أخي.

ويستمر الطرق حتى يستجيب صوت الأخ النائم، وبعد قليل يعلن صوت المزاليج أن البيت قد استيقظ. يشق جو الصباح الهادئ بعد ذلك صوت الأذان للصلاة، الذي يرفعه أحد المؤمنين – (يقصد المسلمين) – من سطح منزل: الله أكبر، الله أكبر. وسريعا ما يرتفع مائة صوت مرددة الأذان من مائة سطح مختلف، وهكذا يبدأ اليوم في البلدة الإسلامية "[٨٣].

وعندما نتأمل الصور الحية التي يرسمها تشيزمان بقلمه مصورا الحياة اليومية في الهفوف نستطيع أن نستشف منها جوانب النشاط الاقتصادي في المنطقة، فهو يقول في إحدى الفقرات:" بعد أن تتجول في طرقات الهفوف والطرق الرئيسة حول الواحة وعندها فقط تدرك أنك حيثما اتجهت تجد سيلا متتابعا من الحمير البيض. هناك حمير محملة بالبضائع من العقير، وأخرى محملة بالحطب المجلوب من الصحراء، وصفوف من الحمير محملة بكتل من الحجر الجيري المجلوب من المحاجر في طريقه إلى القرية أدوات للبناء. يقود هذه الحمير ولد صغير جالس على مؤخرة الحمار الأخير. تكون الحمير في طريق العودة غير محملة وتجري في موكب عبر الشوارع الضيقة يسوقها ولد (عفيريت) مرح في المؤخرة، يرتفع في الهواء عاليا مع كل وثبة لحماره، ولكن بنوع من التجاذب العجيب – خارج نطاق التوازن – يعود إلى النقطة نفسها على ظهر حماره في كل مرة، ويصيح على الحمار الذي في المقدمة بشكل متواصل". ثم يضيف قائلا:" تروح آلاف من الحمير الأخرى وتجيء ساعة بعد ساعة في منحدر رافعة الماء (الغرافة) مسايرة أغنية الرجل الذي يسوقها ووقع صوت القرب الكبيرة (الغروب) عندما تفرغ ماءها في الأحواض عند نهاية كل لفة"[٨٤].

توضح العبارة السابقة أن النشاط الاقتصادي في منطقة الأحساء متعدد الجوانب، فبجانب الأنشطة الرئيسة المتمثلة في الزراعة وتربية الحيوان والتجارة نجد كثيرا من الحرف والصناعات الضرورية لهذا المجتمع، مثل توفير الوقود الأساسي

للحياة اليومية وهو الحطب المجلوب من الصحراء، ونحن نعتقد أنها كانت حرفة يمارسها البعض، فليس من المعقول أن يخرج كل سكان الهفوف ليحضروا حطبهم من الصحراء، والمنطق الاقتصادي الفطري يقول: حيثما وجدت الحاجة وجدت الحرفة الضرورية لها.

نجد كذلك حرفة البناء وما يتفرع عنها من حرف مكملة، مثل: تقطيع الأحجار من المحاجر، ونقلها إلى مكان البناء، والنجارة المطلوبة لإعداد الأسقف الخشبية للبيوت والأثاث الداخلي، بل ولا نغالي إذا زعمنا وجود فنانين متخصصين في نحت أقواس الحجر الجيري التي كانت تزدان بها واجهات المباني، والتي تظهر في الصور المنتشرة بالكتاب.

وبطبيعة الحال فلا بد من وجود صناعات أخرى ضرورية مثل الملابس وغيرها من مستلزمات البيئة التي يصعب إحصاؤها، تعرض المؤلف لبعضها وهو يصف أحد الطرق في الهفوف حيث " تكثر الدكاكين على جانبيه. يأتي أولا صناع الأحذية والنعل إذ الطريق مكسو بقصاصات الجلد الملقاة على الأرض وليس هناك من يجمعها، كما كان هناك دكان لإصلاح السيوف وعدد من تجار الحبوب والنحاسين وصانعي سروج الحمير والإبل"[٨٥]، ثم يضيف قائلا:" تعتبر سلال الحمير إحدى أجود الصناعات المحلية، وهي تصنع ببراعة من ليف النخيل على شكل عش طير، ويشمل استعمالها العام حمل كتل الحجارة والتراب "[٨٦].

إلا إنه أبدى دهشته من وجود حرفة أو خدمة لم يكن يتوقع وجودها في الهفوف آنذاك، حيث كان اليوم الأول له في منزل الضيافة حين سئل عما إذا كانت لديه ملابس للغسيل، لأن هناك رجلا ينتظر ليأخذها إلى أحد العيون الحارة ويحضرها في الغد نظيفة ومجففة، ويعبر عن هذا بقوله:" كانت هذه الأخيرة مفاجأة سارة لأنه لا يوجد في البصرة ولا على سفينة شركة الهند الشرقية – حتى في هذه الأيام المتنورة –

ترتيبات منتظمة يستطيع عن طريقها المسافر أن يرتب لغسل ملابسه وقد تكدس لديّ كم كبير من الملابس المتسخة"[٨٧].

وأشار إلى حرفة أخرى منتشرة وقتها بقوله:" كنت عندما أخرج من البيت الذي أسكن فيه وانعطف باتجاه الشرق أمر بحوانيت الصفارين الصغيرة. يمكن من الصباح إلى المساء وفي أيام الأحد والجمعة سماع رنين مطارق النحاسين حيث يحنون ويطرقون النحاس ليعملوا منه دلال قهوة ذات ميازيب طويلة مثل مناقير الطيور. يمكن أن يتصور المرء بأن صناعة مثل هذه لا بد وأن تدر ثروة من دون أي فرصة لتبذير الدخل، ولكن أكد لي الجنود بأن الأمر ليس كذلك. بقدر ما يزيد دخل الصفارين بقدر ما يزيد أكلهم ويذهب كل ما جمعوه لشراء الأكل أو – للعدالة – لضيافة مسرفة لأصدقائهم"[٨٨].

ويثير دهشتنا في هذه العبارة أن تشيزمان – العالِم – لم يعلق على شكل دلال القهوة ومناقيرها الطويلة، وهل هذه المواصفات تقوم على أساس علمي أم أنها تقليد موروث أو منقول؟ كما أنه لم يذكر مصدر النحاس المستخدم: هل هو مستورد أم مستخرج من البيئة المحلية؟ وينطبق الكلام أيضا على جميع المصنوعات المعدنية الأخرى مثل السيوف والأسلحة البيضاء والقدور وغيرها.

الضيافة العربية:

ولكن حديث المؤلف عن الضيافة المسرفة – في رأيه – يجرنا إلى الحديث عن الضيافة العربية التي جربها تشيزمان في كل مكان نزل به، فبينما نظر هو إلى التكلفة المالية للضيافة،فإن العربي ينظر إلى الموضوع من ناحية القيم والفضائل التي يتربع على عرشها الكرم، هذه الفضيلة التي يعتز بها العرب في جميع عصورهم ويعبرون عنها بتقديم الطعام اللائق في النوع والكمية، حتى وإن كان أهل البيت لا يملكون غيره، بل يضطرون أحيانا إلى الاقتراض من جيرانهم للقيام بالضيافة على

أفضل وجه، والتراث العربي زاخر بالأمثلة على ذلك. وبغض النظر عن اتفاقنا أو اختلافنا مع المؤلف في رأيه فإن هذه الظاهرة موجودة بقوة في ثقافتنا حتى اليوم.

وقد تحدث تشيزمان عن أنواع الطعام الذي كان يقدم إليه طوال مدة رحلته، ومن الطبيعي أن يعبر هذا عن الأطباق الأساسية الشائعة وقتها، فعندما نزل ضيفا على أمير قرية الجشة " أمر الأمير الذي كان على علم بقدومنا بتحضير الشاي والقهوة مسبقا، ولم أتركه يحتار في رأيي حولهما بأنهما كانا ممتازين. تبع ذلك وبسرعة خروف مشوي كامل برأسه وإليته على كومة من الأرز وبعض من الأطباق الجانبية، من دون التأخير الكثير المعتاد لحين الإمساك بالخروف وذبحه وطبخه الذي هو عائق في حالة معظم الضيافات العربية"[٨٩]، ويضيف قائلا:" كان من النادر طوال وجودي في شبه الجزيرة العربية أن أكلت مع مضيفي أو مع بقية المجموعة، مع أنهم غالبا ما ينضمون إليّ فيما بعد لشرب القهوة. ليس هذا – كما يمكن أن نتصور – بسبب أن لديهم اعتراضا على الأكل مع كافر، ولكنه رغبة في إظهار أكبر قدر من الاحترام لضيف السلطان"[٩٠].

والضيافة العربية لا تقتصر فقط على الطعام والمأوى بل تغطي كافة احتياجات الضيف، فرغم أن أول شيء فكر فيه تشيزمان هو شراء زي عربي ليتقي تحديق الناس فيه بسبب غرابة زيه الأوروبي، إلا أنه فوجئ – قبل الشروع في الشراء – بأن أول شيء فعله أمير الأحساء عبد الله بن جلوي هو إهداؤه زيا ليرتديه وآخر لغلامه مهدي، وكأنه قرأ أفكار ضيفه أو – على الأرجح – أحس بالحرج الذي يعانيه بسبب ثيابه، ومن المؤكد أن خبرة الأمير السابقة بهذه المواقف وفطنته دفعته إلى اتخاذ القرار دون إبطاء[٩١]. كما أنه فكر في شراء أحد الخيول ليريحه في الركوب بدلا من الجمل ولكن الجندي المرافق له أوضح له بأن هذا سيعد عيبا، وأن عادة العرب تجهيز ضيوفهم بكل شيء[٩٢].

سوق الخميس:

وكان سوق الخميس من الأحداث الهمة في حياة الهفوف، وحرص تشيزمان على رصد ما يجري فيه حيث أتاحت له إقامته الطويلة نسبيا الفرصة لهذا، فقرر أن يقضي يوما لمشاهدة هذا التجمع التجاري من شرفة مكتب القصيبي الجديد الذي يقع وسط السوق المزدحم، واستطاع أن يقدم لنا صورة حية عن أحداثه:" كان المكان مكتظا بالناس الذين يتحركون في شكل دائري داخلين وخارجين وكأنهم أنماط مشكال[٩٣]. كانت النساء المتحجبات يتمشين في السوق ويغزلن الصوف أثناء مشيهن، وبعضهن كن بنظرة خبير يتفحصن جرات خشبية في كشك. جاء رجل وطلب جرة وأخذها بعد أن دفع قيمتها ثم انصرف. الأمر ليس كذلك عند النساء فهن يرفعن كل جرة ويضربنها بالأصبع لسماع رنينها ثم يضعنها، حتى يتم اختبار كل الجرات تقريبا. وأخيرا أظن أنها أول جرة رفعت هي التي وقع عليها الاختيار. مر بمحاذاتنا بعد ذلك رجل وبقرة مندفعان بسرعة فتبدد الحشد بسرعة من أمامهما. لم يكن الأمر بنفس السرعة بعد قليل عندما مرت عِجْلة مع ولد يقودها من وسط هذا الجمع فكانت خائفة تتقدم ببطء، وأخيرا أطلقها فانطلقت مباشرة بين مجموعة من القدور الفخارية الهشة على الكشك الذي تركته النساء للتوّ، وسمعنا قعقعة مشئومة عندما أسرعت الأظلاف الصغيرة بين الفخار في طريقها إلى الجانب الآخر. كان صاحب الكشك غير قلق على الإطلاق كمن هو متعود على مثل هذه المصائب الصغيرة، ولاستغرابي فعندما أعاد ترتيب سلعه لم يجد أيا منها مكسورا "[٩٤].

ويتناول الوصف أنواعا أخرى من البضائع مثل العباءات والسجاجيد وغيرها، كما يشير المؤلف إلى منادي البلدة الذي ينطلق صوته عاليا في السوق واصفا إياه:" كنت أجد صعوبة في فهم كلامه، وكان لا بد من ترجمته لي. كان هناك شخص من إحدى القرى قد فقد ولدا وبنتا صغيرين، وآخر قد أضاع نقودا على الطريق ووضع خمسها كجائزة لمن يعيدها له. وأخيرا كان هناك رجل قد ضاع منه جرس حماره "[٩٥].

ولا ينسى تشيزمان الإشارة إلى القسم الآخر من السوق الذي كان يقام في نفس الوقت ولكن في مكان مختلف بالبلدة، قائلا:" يقام سوق الماشية في السهل خارج البوابة الشمالية الشرقية في نفس الوقت مع السوق الآخر. يتواجد البدو، الذين يتجنبون حبس البلدة (البقاء فيها) ولو لساعة واحدة، في كل مكان بين قطعان الإبل والضأن والماعز والبقر. تباع بعض الأبقار الجيدة جدا وكذلك بعض الضأن الممتاز والتي من الواضح أنها قد اختيرت للجزار. كل هذه الضأن من النوع الطويل الشعر الكبير الإلية، وهي إما بيضاء أو سوداء وبيضاء وتشبه الماعز كثيرا ؛ لأن فقدان رائحة الماعز في بعض الحالات هو المميز الوحيد إذا لم يكن الذيل بارزا "[٩٦].

والحديث عن السوق لا يمكن بحال أن يخلو من وصف

العملات المتداولة التي حرص تشيزمان على رصدها قائلا: "الريالات (أو دولارات ماريا تريزا كما تسمى بالإنجليزية) هي عملة فضية كبيرة بحجم قطعة خمسة الشلنات ويبلغ وزنها أونصة واحدة فقط، وتعتبر الأكثر شيوعا؛ لأنها العملة الوحيدة التي يقبلها البدو. الريال عملة ذات تصميم جميل فعلى أحد الوجهين رأس ماريا تريزا من النمسا وعلى الآخر النسر النمساوي ذو الرأسين وشعار النبالة، وتحمل تاريخ سنة ١٧٨٠ م "[٩٧].

ويضيف:" توجد عملة أخرى معتبرة في الهفوف وهي الطويلة وتساوي مائة وخمسون منها ريالا واحدا "، لكن "الطويلة هي أصعب العملات للحصول عليها، وتكاد تكون منقرضة. إنها – أو كانت – عبارة عن مسكوكة على شكل قطعة قوية من سلك نحاسي طولها حوالي بوصتين مثنية ومدموغة بكتابة عربية مزخرفة وغير مقروءة، وقد فتح طرفاها على شكل حرف (V). لم

يثمر بحث دؤوب استمر لعدة أيام إلا عن طويلتين، وقد أُخبرت بأن إحداهما ستقبل في الدكاكين بقيمة ربع بنس، مع أن هذه العملة غير مقبولة خارج الهفوف. من المؤكد أن أصل الطويلة من اللارينة الفارسية، وهي عملة فضية شبيهة في تصميمها "[٩٨].

ويضيف ملاحظة جديرة بالاهتمام:" الآن تسمى إحدى العملات التركية طويلة. تم التغلب على مشكلة الفكة الصغيرة عن طريق العملات التركية الحديثة التي استقدمها الأتراك خلال حكمهم وتركوها عندما أُخرجوا من الأحساء. تقبل الروبيات الهندية الفضية (وتساوي شلنا واحدا وأربع بنسات) من دون اعتراض بقيمة ٨٥ طويلة للروبية "[٩٩].

" يقبل هنا علاوة على ذلك عملة أخرى وهي البيزة، أو البيزة الحمراء العمانية، ولكنها ليست متداولة بشكل عام. معلوماتي عن هذه العملة أنها مطلوبة أكثر في الرياض لأنها تسود مع الريال بلا منافس. البيزة عملة نحاسية بحجم نصف البنس تقريبا ويساوي اثنان منها طويلة واحدة. ضربت البيزات بأمر من سلطان مسقط فيصل بن تركي سنة ١٨٩٥م وكتب على أحد وجهيها بالإنجليزية: فيصل بن تركي إمام مسقط وعمان، ربع آنه (ANNA ¼)، وكتب عليها بالعربية: مسقط، والتاريخ الهجري ١٣١٥ هـ. على الوجه الآخر إكليل مستدير من أوراق الأشجار وكتب في الوسط بالعربية فقط: فيصل بن تركي سلطان عمان"[١٠٠].

ثم يشير إلى ملاحظة أخرى:" لا يشاهد الذهب في المعاملات التجارية الصغيرة مع أن الجنيه الإنجليزي والليرة التركية مقبولة – بالطبع – في أي مكان بالبلدة. من

الغريب أن شيك الرجل الإنجليزي في هذه المناطق يلقى تقديرًا أكثر مما يعادله من الأوراق النقدية من الروبية الهندية أو الجنيه الإنجليزي، وهذا خير دليل على احترامنا"[١٠١]. والواضح أنه – بدواعي الفخر – يخلط بين النظام المصرفي والجنسية، فالثقة – كما يوحي كلامه – كانت موجهة لقوة الشيك في النظام المصرفي الإنجليزي المتقدم وليست للدولة نفسها.

على أية حال فقد ختم كلامه عن العملات بقائمة فيها تحديث لقيمتها، ولكنها لا تختلف كثيرا عما ذكره[١٠٢].

الذهب الأخضر:

في أرض مثل شبه الجزيرة العربية – وقت زيارة تشيزمان – تبدو واحة الهفوف بخضرتها الشديدة أشبه بمنجم للذهب الأخضر، يفوق معدن الذهب في قيمته، فالزراعة في هذه الواحة تعيش عليها كل الكائنات الحية الموجودة في الأحساء، فمنها يستمد أهلها – وحيواناتهم – غذاءهم، ويقوم عليها اقتصادهم وتجارتهم. يصف تشيزمان هذه الخضرة الرائعة التي صدمته بجمالها عندما وصل الهفوف قائلا:" تكشف أشجار النخيل الطويلة عن خصوبة التربة عندما تحصل على الماء الضروري المتوفر هنا بكثرة. كانت معظم الأرض الواقعة تحت أشجار النخيل مزدهرة بالبرسيم الأخضر النضر. بعد الأميال القليلة الأولى يبدأ العقل الزراعي يتساءل عما يمكن أن يلتهم هذه الكميات الهائلة من البرسيم. لا تتضح الإجابة إلا بعد أن تتجول في طرقات الهفوف والطرق الرئيسة حول الواحة، وعندها فقط تدرك أنك حيثما اتجهت تجد سيلا متتابعا من الحمير البيض"[١٠٣]، ويضيف:" تعتمد هذه الحيوانات وحتى الإبل التي تعيش في البلدة على البرسيم الأخضر والتمر غذاء. ولهذا فلو سئلت عن الصناعتين الأساسيتين في الهفوف، فسأقول: التمر أولا والبرسيم يحل بجدارة في المرتبة الثانية"[١٠٤].

زراعة الحبوب:

رأينا في الحديث عن الضيافة العربية أن الأرز كان من الأطباق الأساسية اليومية في الأحساء، ولعله كان كذلك في شبه الجزيرة العربية بكاملها، مما يعني ضرورة توفر مخزون دائم منه في المنطقة. وقد أشار تشيزمان إلى زراعة الأرز في الهفوف لحاجته إلى كميات كبيرة من الماء الذي تكفلت به العيون الكثيرة قائلا:" تحتل حقول الأرز الأراضي المنخفضة والتي تشرف عليها العيون، ولهذا فإن الماء يغمر الحقل بدون رافعة اصطناعية. حفر بعض هذه الحقول للحصول على المستوى المطلوب، وترمى التربة الزائدة على الضفاف الجانبية بارتفاع كبير. عندما تسد الفتحة يمكن تجفيف الأرض تماما وزراعة القمح بين موسم حصاد الأرز وزراعته للموسم القادم "، ولكنه ينبه إلى ملاحظة هامة قائلا:" لا تجلب مياه عيون الهفوف الصافية تربة غنية لتجدد الأرض سنويا مثلما هو الحال مع حقول الأرز في العراق والتي تستفيد مرتين من فيضان مياه دجلة والفرات، ولهذا فعلى مزارعي الهفوف أن يعتمدوا على طرق صناعية. تكدس نفاية القرى خارج البلدة لتحملها قافلة الحمير البيض لكي تسعمل في استصلاح الأراضي الضعيفة "[١٠٥].

وعلى ذلك يمكن أن نزعم أن الهفوف كانت المحتكر لزراعة الأرز في شبه الجزيرة العربية – آنذاك – لتوفر المياه اللازمة لزراعته.

وقد أشار تشيزمان أيضا إلى زراعة بعض المساحات المحدودة بالقمح قائلا:" كانت الاستعدادات جارية لزراعة القمح على مساحات صغيرة من الأرض خارج منطقة النخل، حيث يمكن الحصول على قدر أكبر من الشمس. تكون سيقان القمح في منطقة ظل النخيل نحيلة ويمكن زراعة حب من الدرجة الثانية فقط. تحرث الأرض باليد بواسطة آلة مثل المسحاة ولها يد مثل المجرفة، والمحاريث غير معروفة في الأحساء "... يبذر القمح بعد حرث الأرض مباشرة ثم يسقى بالماء. عندما يسنبل القمح في ٤ نوفمبر، فالحصاد يكون حوالي منتصف مارس أي قبل العراق بشهر إلى

خمسة أسابيع مع أن وقت البذر في البلدين متزامن تقريبا. هنا يطلق اسم البرّ عندما نتكلم عن الحنطة بشكل عام "[١٠٦].

ويؤكد أن زراعة القمح كانت محدودة بقوله:" ومع أن القمح هو النوع الوحيد من الحبوب الذي يزرع في الشتاء فلا نستطيع أن نقول أنه يزرع بشكل واسع، فالمساحات التي يزرع بها صغيرة، وفي الحقيقة أنك تحتاج إلى بحث كبير لتجدها، وأكبر قطعة رأيتها في كل الواحة كانت حوالي ثلاثة فدادين"[١٠٧].

ويتحدث عن أنواع القمح قائلا:" تباع ثلاثة أنواع من القمح في سوق الأحساء، أحدها مستورد من كراتشي والعراق ولهذا فهو ليس بذي شأن بالنسبة لي، ولكن النوعين الآخرين يزرعان محليا وحصلت على عينات منهما لأعود بها معي. أفضل نوع يسمى السعيدية (Saidiya) وهو عينة جيدة من القمح الأحمر الصلب الأملس ولا يخلط معه شعير وقد عرف باسم (Triticum Vulgare). والنوع الآخر يعرف باسم كودلا (Coda)[١٠٨]، وبجانب كونه خليطا من نوعين من القمح (T.durum) و(T. Vulgare) فهو يحتوي على نسبة ٩٪ من الشعير الرقيق"[١٠٩].

منوعات زراعية:

يصف تشيزمان بعض المحاصيل الزراعية الأخرى الموجودة في الأحساء التي لا تمثل زراعتها أهمية اقتصادية ملموسة لقلة المزروع منها وأحيانا ندرته، ويمكن التعرف على هذه المحاصيل ودرجة أهميتها من خلال تتبع فقرات الكتاب المتناثرة التالية:

" تخصص بعض المزارع لأشجار البرتقال والخوخ والرمان والأترج التي تنمو جيدا تحت أشجار النخيل وبعد زراعتها لا تحتاج ولا تحصل إلا على القليل من العناية بخلاف جني الثمر. هذه المحاصيل تحتل المسطحات العالية أما الحقول المنخفضة فهي تخصص للأرز. بقية الزراعة من نوع المصادفة، فهنا يزرع بصل في هذه المساحة وباذنجان في تلك الأخرى "[١١٠].

" تنمو أشجار ليمون وبرتقال تحت أشجار النخل في بعض المزارع. من الغريب أن محصول البرتقال كان قد انتهى في منتصف شهر نوفمبر بينما في العراق كان هذا سيكون بداية القطفات الأولى. الفرق شهران وليس لديّ إيضاح لذلك، مع أن اختلاف أسبوعين سيكون معقولا بحكم اختلاف المناخ وخط العرض "[١١١].

وللأحساء عيون:

هناك متلازمات بدهية في هذه الحياة منها التلازم بين طلوع النهار وشروق الشمس، فلا يمكن أن يوجد أحدهما منفصلا عن الآخر، ومنها كذلك التلازم بين الزراعة والمياه، ونضيف إلى ما سبق التلازم بين الأحساء وعيونها.

فرغم أن الأحساء خالية من الأنهار السطحية إلا أنها غنية بعيون الماء التي جعلتها واحة تجري من تحتها الأنهار، ولله في ذلك حكمة لا ندركها. ولم يغب عن تشيزمان حصر هذه العيون قائلا:" اعتبرت أن من المرغوب فيه الحصول على قائمة بالعيون الجارية الأكثر أهمية في واحة الأحساء. فالعديد منها صغيرة للغاية لدرجة أنها تسقي بستانا أو بستانين. ستصل قائمة تشملها جميعا في الإجمال إلى عدة مئات، ومن المشكوك فيه أن يعرف شخص واحد أسماءها جميعا، ولكن لا بد أن هناك سجلا لدى موظفي الدخل الرسميين. طبقا لمصدر معلوماتي فإن كل ترتيبات السقيا من العيون المختلفة هي في يد الشيخ عبد الله أي في يد الحكومة. عندما يشتري شخص بستانا فإنه يحصل على ورقة يحدد فيها أوقات سقياه، وتحفظ هذه الورقة لدى الأمير، وإذا تجاوز شخص وقت السقيا المخصص له مسببا الضرر لجيرانه فإنه يُحضَر أمام الأمير، وإذا ثبتت إدانته فإنه يجلد. نتيجة لذلك فإن نزاعات المياه تحولت الآن إلى آلية رائعة من الكفاءة والتعقيد"[١١٢].

وقد صرح بأنه لم ير العيون كلها رغم أنه وصف كثيرا منها في كتابه، ولعله اعتمد في ذلك على رواية أشخاص ثقات من مرافقيه أو من التقى بهم أو نزل في

ضيافتهم. وما يهمنا هنا العيون التي رآها بنفسه حتى نلمس الأثر النفسي الذي خلفته زيارته لها، وهي:

الخدود: هي أكبر العيون في الواحة على الأرجح، دافئة الماء وليست حارة جدا مثل عين أم سبعة، وتسقي منطقة البساتين الواقعة على بعد ميل ونصف إلى الشرق من الهفوف، حيث تنبع عند قاعدة جبل قارة على بعد حوالي ثمانية أميال إلى الشرق من منبع العين. تنبثق العين من فتحة أنبوبية كبيرة في الصخر إلى بركة يقصدها سكان الأحساء كثيرا من أجل الاستحمام وغسيل الملابس، وقد رأيتها بنفسي.

أم سبعة: هي تقريبا بحجم الخدود نفسها، وتقع على بعد ستة أميال إلى الشمال من الهفوف، وثلاثة أميال إلى الشمال من المبرز. تسقي مناطق منخفضة في كل الاتجاهات لكن بساتينها لا تجاور تلك التي تسقى من العيون الأقرب إلى الهفوف. تنبع من صدع دائري في صخرة حجر رملي جيري وتجري إلى حوض تتشعب منه سبعة جداول منفصلة كل واحد منها يمكن أن يسمى نهرا صغيرا في إنجلترا.

هذه هي أكثر العيون حرارة في الواحة، وقد قست درجة الحرارة عند طرف البركة فكانت ١٠١ درجة فهرنهايت، ولأن الهواء كان باردا فلا بد أنها كانت ١٠٣ درجة فهرنهايت عند المركز، وقد رأيتها بنفسي.

الحارة: عين قوية الجريان وأصغر من سابقتيها، ماؤها فاتر، وتنبع على بعد نصف ميل إلى الشمال من بلدة المبرز. تسقي حزاما من البساتين على بعد ميلين أو ثلاثة أميال وتجري باتجاه الشرق. يستخدم حوضها بكثرة رجال المبرز ونساؤها من أجل الغسيل والاستحمام، وقد رأيتها بنفسي.

أم خريسان: عين أصغر من عين الحارة، وكانت درجة حرارة الماء عند طرف البركة ٨٨ درجة فهرنهايت في ٢١ ديسمبر. تنبع على مسافة نصف ميل إلى

الشمال من الهفوف، وهي محاطة ببساتين تعتمد عليها. يستخدمها بكثرة رجال الهفوف ونساؤها من أجل الغسيل والاستحمام، وهناك سياج مسور يحجب النساء عن الرؤية، وقد رأيتها بنفسي.

برابر: عين سريعة الجريان، وتتبع من شمال شرق الهفوف، وتجاور بساتينها تلك التي تسقى من عيني الخدود والحقل. ماؤها مشهور بعذوبته ودائما ما توفر إمدادات السلطان منها عندما يكون في الهفوف، وقد رأيتها بنفسي.

عين نجم: عين صغيرة بل إنها لا تجري، لكنها واحدة من أكثر العيون شهرة بسبب مياهها الكبريتية التي يفترض أنها تشفي من الحميات والأمراض الأخرى. تقع على بعد ثلاثة أميال إلى الشمال الغربي من الهفوف في سهل أجرد من الحجر الرملي الجيري. يقال إن الماء يغلي عند انبثاقه، لكنه كان فاترا فقط عندما اختبرته. البركة مغطاة تماما بمبنى حمام عمومي يحوي غرفتي تغيير ملابس، وهو الآن يمر بمرحلة خراب. هناك أيضا رافعة للماء كانت تسقي فيما مضى حوالي أربعة آلاف متر مربع مزروعة بالذرة، وقد رأيتها بنفسي.

عين أم جمل: عين جارية صغيرة ضمن مسافة مائة ياردة من عين الخدود، ومن المحتمل أنها فرع منها، وقد رأيتها بنفسي"[١١٣].

يبرين.. الواحة المجهولة:

كانت زيارة واحة يبرين التي تقع جنوب الصحراء الكبرى المعروفة باسم صحراء الجافورة من الأهداف الرئيسة لرحلة تشيزمان، بناء على نصيحة من السير برسي كوكس، لكشف غموض هذه البقعة المجهولة التي يصفها بقوله:" ولكني أعرف أنه لا يوجد قوافل تمر بها أو تذهب إليها، وهي في الحقيقة معزولة في صحراء بلا ماء والفرصة ضعيفة للوصول إليها. لهذه الأسباب فإنها قد استعصت على عيون الأوروبيين، بل وحتى أنه لم يرها إلا القليل من العرب. كانت أشجار نخيلها محاطة بسياج من الغموض، ويرعى البدو المؤمنون بالخرافات إبلهم في محيطها، وينسجون

حولها الكثير من القصص والسحر. ربما أنها أعجوبة صغيرة أن احتلت هذه الرحلة الأسبقية في ذهني على كل الأشياء الأخرى، وكانت كذلك تعني دخول الأرض التي أريدها أي الجزء الشمالي من صحراء الجنوب العظيمة "[١١٤].

والجملة الأخيرة في العبارة توضح خطأ المعلومات الجغرافية التي اعتمد عليها وقام بتصحيحها في هذه الرحلة، وهذا الخطأ سبب له إحراجا وهو يستأذن الملك عبد العزيز في زيارة يبرين:" لا بد أنني خلال هذه المقابلة قد حيرت السلطان بسؤالي إياه عندما أخبرني أن بإمكاني الذهاب إلى يبرين إن كنت أستطيع الذهاب إلى الجافورة تلك الصحراء الواسعة التي لا بد من اجتيازها في الطريق إلى يبرين. كنت قد بينت آنفا أن خريطة فيلبي – التي تضع الجافورة إلى الجنوب من يبرين – قد ضللتني، وقد تسبب الخطأ في العديد من التعقيدات المسلية مع دليلي المري خلال الرحلة الفعلية"[١١٥].

وفي أحد لقاءاته بالملك عبد العزيز خلال زيارته للأحساء سأله عن إمكان ذهابه إلى يبرين في أقرب فرصة فرد عليه بأن رحلة يبرين ممكنة، وسيرتب لذهابه إلى هناك حالما تصله تقارير عن وجود مراعي كافية[١١٦]. ويوضح تشيزمان الوضع بقوله:" كان هناك عقبة واحدة فقط هي أن جنوب البلاد لم يمطر منذ عام، والشجيرات لم تتْمُ بما يكفي لغذاء إبلنا. كانت المسافة تسعة أيام إلى تلك الواحة وتستطيع الإبل الذهاب إليها بدون ماء طوال تلك المدة، ولكن لا بد من الانتظار حتى نزول المطر وظهور العشب الكافي لإطعام بهائمنا طوال الطريق. كان الانتظار طويلا، لكن أخيرا نزل المطر وتبعه نمو البراعم والأغصان الخضراء على شجيرات الصحراء "[١١٧].

صحراء الجنوب العظيمة:

قام تشيزمان بالتجهيز الدقيق للرحلة كما فعل في المرة الأولى، ليبدأ رحلته الشاقة إلى يبرين مارا بصحراء الجنوب العظيمة، وهو يوضح صعوبة الرحلة بقوله:" كانت خرائط هذا الإقليم خالية تقريبا من أي معلومات عنه، والتفصيل القليل هناك مستمد من المعلومات المحلية والتي كانت في الغالب مضللة. كان أي شيء معلم على

الخرائط إما بعيدا عن موقعه الصحيح أو لا وجود له على الإطلاق. كانت مهمة مطابقة فكرتي المسبقة عن البلاد مع وصف صالح – (الدليل المري) – عما يقع أمامنا مثل أحجية صينية. كان يتحدث دائما عن يبرين، وليس أبدا جبرين، وكان في نيتي أن أستخدم تلك الصيغة حتى تبين أنه حتى المثقف العربي ينطق الكلمة يبرين لكنه يكتبها دائما بحرف الجيم. بدا يقينا في هذه المرحلة أن الآبار التي ذكر فيلبي أنها واقعة في مجرى وادي السهباء في الطريق بين الهفوف ويبرين هي أساطير. وكان يجب أن نكون قد مررنا بها، لكن صالحا قال: إننا لن نرى أية آبار بعد مغادرتنا زرنوقة حتى ندخل يبرين، وقد اعتبر أن ستة أيام من السير الجاد سيغطي المسافة "[١١٨].

ورغم هذه المشقة الواضحة إلا أن تشيزمان لم يتوان عن رسم الخرائط الجغرافية وتحديد المواقع باستخدام الأجهزة العلمية التي يحملها معه، وبطبيعة الحال،فإنه لم يترك فرصة للصيد وجمع العينات إلا واقتنصها.

ويصف مشهدا آخر بقوله:" شاهدنا البارحة مثلا للجراحة البدائية. كانت شوكة قد انغرست عميقا في باطن قدم صالح الذي جلس في ضوء النار ليستخرجها، ثم أخذ جمرة حمراء متوهجة من اللهب وشرع يكوي بها الجرح. كان الرجال متمرسين في أساليب العيش في الصحراء أيضا، وقد رأيت أحدهم يغتسل تحت جمل يبول "[١١٩].

مفاجأة في يبرين:

وأخيرا ظهرت واحة يبرين التي علق عليها المؤلف آمالا واسعة سرعان ما تحولت إلى إحباط شديد في قوله:" كان الانطباع الأول عن واحة يبرين على الأصح محبطا. كانت أشجار النخيل – التي جمعت هنا وهناك حول المساحات الرملية – شبه برية ومهملة تماما. بدل المسافات المتساوية والصفوف المعتادة للجذوع جيدة العناية المألوفة في الهفوف، كان هناك عادة اثنتان أو ثلاث من أشجار النخيل الطويلة مع عدد كبير من صغار النخيل والأفراخ حولها تصارع جميعا من أجل البقاء. على أية

حال فالحقيقة أنه على الرغم من هذا الإهمال فإن كمية كبيرة من التمور تنتج هنا كل عام. بدت منطقة النخيل ممتدة لحوالي خمسة أميال شمالا وجنوبا، وميلين شرقا وغربا من حيث ألقينا نظرتنا الأولى فوق أعلى جبل يبرين شمالا. كان صالح قد واصل أوصافه الوردية حتى ليلة البارحة حول نار المخيم، والآن اختفت الجداول الجارية، والسهول التي تعج بالحبارى والغزلان. مجردة من كل أمجادها الخيالية، كانت يبرين تمثل فقط بقايا حضارة قديمة حاملة معها صراعا غير متكافئ ضد تجفيف الرمل الذي كان يطوقها من جميع الجوانب "[١٢٠].

وفي الحقيقة فإننا لا ندري أكان مصدر الإحباط اختلاف الواقع عن الصورة التي قدمها الدليل المري أم عن الصورة التي كانت مرسومة في مخيلة المؤلف نفسه؟

وأيا كان سبب الإحباط فهو مستغرب من المؤلف،لأن هدفه كان زيارة الواحة الغامضة لدراستها وتحديد موقعها، ولم يكن الهدف هو الاستجمام في مكان جميل. ويبدو أن إقامته في الهفوف أولا وإعجابه بها، إضافة إلى الآمال الكبيرة التي كان يعقدها على اكتشاف شيء جديد في يبرين بعد المشقة العظيمة التي عاناها في صحراء الجنوب العظيمة، قد ولّد في نفسه هذا الشعور بالإحباط الذي أسقطه على الدليل المري صالح، وكأنه هو السبب في تولد هذا الإحباط.

" كانت تنظرني مفاجأة أخرى على وجبة العشاء ؛ إذ أرسل الأمير صينية أرز ضخمة يعلوها جدي كامل "[١٢١].

" ركبنا الإبل وأمضينا ساعة أو ساعتين بين نخيل التمر فيما يسمى البساتين، كان المشهد مقفرا ومحبطا بسبب الإهمال الكامل وقد هجرته حتى الطيور، لم تكن هناك بلابل تغني كما في الهفوف"[١٢٢].

" يلزمني القول إن آل مرة سلالة بهية الطلعة، وهم ليسوا بالغي الطول ولكنهم ذوو أجسام متناسقة، ذكرني شكل الوجه بالقسمات التي ترى على التماثيل السومرية المبكرة. ليس مبالغة إذا افترضنا أنهم الممثلون لهذه الحضارة الأقدم "[١٢٣].

" كنت سعيدا أن تتاح لي الفرصة لفحص الخرائب... استخدم في بناء القلعة الحجر الرملي الجيري والطين والجبس، وأحيانا كتل من الصخر، وقد بقي القليل منها باستثناء الجدران الأربعة المتهالكة التي يبلغ ارتفاعها حوالي ثماني عشر قدما... لم يكن بناة هذه الدور الغامضة قبيلة بدوية بسيطة ؛ إذ يوجد صف من الفتحات في الساحة الداخلية لا تزال ظاهرة، والتي كانت تحمل الروافد لطابق ثان، وساحة أصغر لحراسة المدخل حيث كان يوجد الباب"(١٢٤).

" عثرنا هنا أيضا على قطعة الجرانيت الوحيدة في مجموعتنا. بدا غريبا أن نجدها في هذا الموضع؛ إذ إن كل المنطقة عبارة عن حجر رملي، وعندما درست الأمر في إنجلترا بدا لعيني غير المجربة أن أقرب مثيل لها هو جرانيت أسوان الأحمر الذي استخدم للتماثيل المصرية القديمة. رجوت أن أكون قادرًا على تفسير وجود هذه القطعة حيث وجدتها باقتراح أن لها صلة ما بطرق القوافل القديمة بين الجرهاء ومصر، ومن المحتمل أنها كانت رقاقة أو كسرة سقطت من كتلة أكبر كانت في طريقها إلى سومر أو بابل، لكن السيد كامبل سميث لم يوافق على هذا "(١٢٥).

" كانت البئر الدائمة قرب المخيم عبارة عن تجويف دائري نافذ في حجر رملي طباشيري، وكان الماء على عمق حوالي أربعين قدما "(١٢٦).

" تناول الأمير طعام العشاء أولا مع رفاقي، ثم انضم إليّ من أجل الشاي والقهوة والبخور... وكان آسفا لعدم تمكنه من أن يرسل لي بعضا من تمور يبرين لتذوقها ؛ لأن حيواناته أكلت كل التمور بسبب ندرة العلف نتيجة القحط... كنت حقيقة ممتنا للشيخ حمد؛ لأن كل شيء انتهى بسلاسة، وأدركت بشكل كامل صعوبة موقف رجل مسئول عن كافر في هجرة للإخوان. لو حدث لي شيء لكان مستقبله قد تأثر بشكل جدي. أكد كل الرجال بما فيهم الأمير قصة السمعة السيئة للواحة كموطن للحمى"(١٢٧).

العودة إلى الوطن:

" لسعادة الجميع رحلنا من يبرين "[١٢٨].

كان الرحيل يوم ٢٣ فبراير، ووجد تشيزمان الفرصة في طريق العودة لجمع العينات وكتابة الملاحظات ورسم الخرائط، ووصلت القافلة الهفوف يوم ١ مارس.

وهو يصف يوم الرحيل من الهفوف إلى العقير الموافق ٤ مارس بقوله:" رياح غربية وبضع تساقطات للمطر ليست مرغوبة الآن، لأن الطريق بين البساتين قد يصبح زلقا ولا بد للإبل من الانتظار يوما أو يومين. كانت خطتنا أن نصل الجشة ونمضي الليلة هناك، ثم نقطع الطريق من الجشة إلى صحراء العقير في اليوم التالي. كان وصول الحمير لتحمل الصناديق العلامة الأولى على الرحيل المرتقب "[١٢٩].

واستكملت القافلة رحلتها إلى العقير مع شروق شمس اليوم التالي، " أبحرنا خارج فم الميناء الذي كنا دخلناه في ١٧ نوفمبر، ورسونا هناك ننتظر ريحا جنوبية ممضين كل اليوم التالي إما متوقفين أو نبحر ببطء باتجاه الشمال مع ريح كافية بالكاد لملء الشراع، ووصلنا ميناء البحرين في صباح اليوم التالي... كانت الرحلة إلى البصرة خالية من الأحداث، وكانت الباخرة التي عدت فيها إلى إنجلترا راسية في شط العرب تحمل شحنة في وسط المجرى، واستطعت أن أصعد مع كل طرودي... وجدت عند عودتي إلى إنجلترا أن كل عينة جمعت خلال الحملة قد وصلت إلى مكانها المقصود، سلمت الصناديق التي سبقتني من الهفوف إلى المتحف البريطاني بلا أي حادث"[١٣٠].

طيور تشيزمان:

رغم الصفحات الطويلة السابقة التي صحبنا فيها تشيزمان في رحلته داخل الأحساء إلا إنها – للأسف الشديد – لم تكن سوى وصف لأحداث ثانوية في الرحلة التي كان هدفها الرئيس دراسة الطيور والحيوانات والحشرات في شبه الجزيرة العربية، ولكي نعرض تفاصيل هذه الدراسة يلزمنا نسخ كتابه بالكامل !

وحلا للمشكلة مع إنصاف الرجل رأينا أن نتيح له الفرصة لعرض ملخص نتائج رحلته كما سجلها بقلمه قائلا:" قد يكون من المفيد أن ألخص هنا نتائج رحلتي. تمت

زيارة قبيلة آل مرة وواحتهم الغامضة يبرين وتصويرها. تم أخيرا اختراق صحراء الجنوب العظيمة، ووضعت خريطة للطريق الممتد لمسافة مائة وخمسين ميلا في منطقة لم تكتشف من قبل. تمت وللمرة الأولى رؤية وادي السهباء[١٣١] بعيون أوروبية، وتم التأكد من ارتباطه بوادي حنيفة في نجد. بنفس الدرجة من الأهمية من وجهة نظر علم وصف المياه العربية كان الدليل على عدم وجود نهرين، أو قناتي تصريف ضخمتين، والتي أبرزت بشكل كبير في الخرائط العربية من أقدم الأزمان تحت أسماء وادي يبرين ووادي عفطان (أو عفتان) [١٣٢]. كان لا بد لطريقنا أن يقطعهما لو كانا موجودين، ولا بد أن ينظر إليهما على أنهما أسطورتان[١٣٣]. المعلومات التي أفصح عنها صالح فيما يتعلق بظروف قلب صحراء الجنوب العظيمة هي ثمينة، خاصة فيما يتعلق بوجود جريان ماء متقطع في آبار مقينمة وهو موضع لم يسمع به من قبل، وقد أضاف إلى معرفتنا عن شكل ومدى بقع الكثبان الرملية العظيمة، واكتشاف الحقل الخرب في أبي زهمول قوّى الادعاءات التي قالها المؤرخون السابقون بأن العقير هو موقع الجرهاء الميناء الفينيقي القديم.

حددت فلكيا دائرة العرض وخط الطول للعقير والهفوف ويبرين، وكذلك دائرة العرض لوادي السهباء، لقد سبق أن وُضعت كل هذه الأماكن مؤقتا على الخرائط لكن مواقعها لم تحدد بشكل دقيق في السابق، حصل فيلبي على أية حال على خط العرض للهفوف.

بالنسبة لمجموعات العينات فإن هناك ثماني وأربعين عينة لحيوانات ثديية تمثل ثمانية عشر نوعا منها خمسة أنواع، وأربعة تحت نوع (جديدة) على العلم. تحوي المائة والسبع والعشرون عينة للطيور على أربعة وثلاثين نوعا، منها ثلاثة تحت نوع جديدة. تمثل الاثنتان والعشرون عينة للزواحف أحد عشر نوعا، منها ثلاثة لم تسجل من الجزيرة العربية سابقا. العينات العشرون البالغة، والسبع عشرة غير البالغة للأسماك تمثل جميعها نوعا واحدا، تمثل الثلاث والسبعون عينة من الحشرات خمسة

وثلاثين نوعا، منها أربعة أنواع تحت نوع واحد (جديدة). تمثل الست والثلاثون عينة من النباتات ثلاثة وعشرين نوعا فطريا، وثلاثة عشر نوعا مزروعا، واثنان من الأنواع الفطرية عدت جديدة على القائمة العربية، تم الحصول على العينات الجيولوجية من الهفوف والجافورة ووادي السهباء ويبرين "[١٣٤].

تشيزمان في الميزان

يقول المترجمان في مقدمة الترجمة:" إن مما زاد من صعوبة ترجمة هذا العمل بالإضافة إلى لغة وأسلوب المؤلف هو تنوع المواضيع التي عالجها، مما جعل ترجمة هذا الكتاب أشبه ما تكون بحرب خنادق، تخرج منهكا من هذا الخندق لترى أمامك سلسلة أخرى من الخنادق التي يجب اجتيازها. لكن بالإصرار والعزيمة والتشجيع المتواصل من مكتبة الملك عبد العزيز تمكنا والحمد لله من إنجاز هذا العمل "[١٣٥].

فإذا كانت زيارة تشيزمان قد استغرقت أقل من أربعة أشهر، فإن كتابه احتاج إلى أضعاف هذه المدة لترجمته، واحتاج إلى أضعاف أضعافها لدراسته دراسة جيدة. وإن دل هذا على شيء فإنما يدل على الجدية والدأب والنهم إلى البحث والمعرفة.

ورغم أن هذا الرحالة جاء إلى شبه الجزيرة لدراسة الطيور إلا إنه غطى جميع مناحي الحياة في الأحساء – البشرية والطبيعية – بملاحظاته الكثيرة والصور الحية التي اشتمل عليها كتابه، والتي تفوح منها رائحة الزمان والمكان. وهذا ما جعل السير برسي كوكس الضابط البريطاني وأول مندوب سام بريطاني في العراق يقول في تقديمه للكتاب:" ولخدمة علم الحيوان في المقام الأول خطط الرائد تشيزمان لرحلته الحديثة إلى بقعة غير مكتشفة من شرق الجزيرة العربية، والتي أعطى وصفا لها في هذا الكتاب الذي بين أيدينا، والذي أثنى عالم التاريخ الطبيعي الشهير اللورد روثشيلد على قيمته وأهمية النتائج التي توصل إليها خاصة في حقل علم الطيور. لكن بينما براعة الرائد تشيزمان بوصفه عالما ميدانيا في التاريخ الطبيعي تجعل ملاحظاته عندما يتحدث عن حيوانات المنطقة ذات معنى ووزن خاصين إلا أن أنشطته ليست محدودة

بذلك المجال فقط. على النقيض من ذلك فقد كان يعرف قبل بدء رحلته الاهتمامات الجغرافية والأثرية بهذه المنطقة والتي يأمل اكتشافها، ولهذا بذل جهدا لإعداد نفسه بتدريبات وقراءات أولية – كما يجب أن يفعل الرحالة الجادون في هذه الأيام إذا أرادوا أن يقوموا بعمل ذي قيمة – ليتعامل بفعالية مع مثل هذه القضايا التي قد تصادفه، والنتيجة أنه تمكن من عمل إضافة قيمة إلى معرفتنا في كلا المجالين.

في مجال الجغرافيا – على سبيل المثال – فهو لم يمط اللثام فقط عن (اللغز) مستوطنة يبرين، والتي كانت لأجيال اسما يستحضر الأرواح فيما بين الرحالة والجغرافيين المهتمين بشبه الجزيرة العربية، ولكنه استطاع أن يلقي بعض الضوء المفيد حول موضوع تصريف مياه السيول من منطقة نجد المرتفعة، وقد كانت مشكلة حيرت الجغرافيين منذ أقدم العصور "[١٣٦].

ويضيف قائلا:" كفى بالجوانب العلمية والفنية للرحلة، فإذا نظرنا إلى القصة نفسها، فإننا سنجد فيها سجلا صادقا ومفعما بالحيوية لسفر الصحراء، والذي غالبا ما تم في أصعب الظروف مع صبر ودأب لا ينضبان. اتسم ذلك كله بروح مرحة – حقا – غالبا ما فرضت نفسها ومكنت الرحالة من الحفاظ على سماحة طبعه وتهوين مصاعبه "[١٣٧].

الغريب في هذه الرحلة أن تشيزمان لم يظهر قلقا من مخاطر الصحراء بقدر ما ظهر قلقه واضحا من الإخوان والوهابيين، وكان لديه دائما شعور بالخطر من تواجده بينهم. ورغم أن فكرة الغربيين عموما عن الإسلام في شبه الجزيرة العربية واحدة، إلا إن تشيزمان لم يكن من النوع المغامر الذي يستطيع التلون والتظاهر بغير ما في نفسه، فكان القلق يتملكه بشكل واضح رغم الترحيب المبالغ به الذي لقيه في زيارته.

سجل تشيزمان ملاحظاته على هيئة يوميات وإن كان لم يلتزم فيها أحيانا بالترتيب الزمني الطبيعي للأحداث، فنجد أنه يستبق بذكر بعض الأحداث التالية قبل موعدها، وأحيانا أخرى يستدعي أحداثا سابقة في غير سياقها، مما يدل على أنه كان يسجل

يومياته كل فترة زمنية حيثما تيسرت الأمور[١٣٨]. ورغم أن الظروف كانت ميسرة له بعد عودته إلى لندن ليعيد تنظيم أوراقه إلا أنه لم يفعل إلا في الجزء الخاص بالملاحق، ويبدو أنه دفع بأوراقه كما هي إلى المطبعة لتطبع في كتاب سبب إجهادًا للمترجمين والباحثين.

ورغم أن الكتاب قد تم طبعه عام ١٩٢٦ م ووفاة مؤلفه كانت عام ١٩٦٢ م – كما جاء في النسخة المترجمة – فإن الشيء المستغرب حقا أنه لم يشتمل على صورة شخصية له، رغم أنه كان يقوم بتصوير كل ما تقع عليه عيناه، ورغم أنه وضع صورا لأشخاص كثيرين منهم السير برسي كوكس. فهل كان هذا تعبيرا عن تواضع العلماء، أم عزوفا عن الظهور في الإعلام، أم أن القوانين البريطانية آنذاك كانت تمنع نشر صور العلماء؟

سؤال لا يستطيع الإجابة عنه إلا تشيزمان نفسه.

الهوامش

(١) أنظر ديفد جورج هوجارث، اختراق الجزيرة العربية، ترجمة صبري محمد حسن، مراجعة جمال زكريا قاسم، المركز القومي للترجمة، القاهرة، ٢٠٠٩م، ص ص ١٤-١٥.

(٢) محمد عبد الهادي الشيباني، "أهداف الرحالة الغربيين"، الرحلات إلى شبه الجزيرة العربية، بحوث ندوة الرحلات إلى شبه الجزيرة العربية، دارة الملك عبدالعزيز، الرياض، ١٤٢١هـ/٢٠٠٠م، ١/ص ص ٥١٥-٥٤٩.

(٣) سمير عطا الله، قافلة الحبر – الرحالة الغربيون إلى الجزيرة والخليج (١٧٦٢-١٩٥٠) –، دار الساقي، بيروت، ١٩٩٤م، ص ١٦.

(٤) هوجارث، المرجع السابق، ص ١٣.

(٥) روبرت إرنست تشيزمان، في شبه الجزيرة العربية المجهولة، ترجمة: عبد الله بن محمد المطوع – محمد بن عبد الله الفريح، مكتبة الملك عبد العزيز العامة، الرياض، ١٤١٩ هـ / ١٩٩٩ م، ص٢٠ .

(٦) هذا عنوان النسخة المترجمة، وستكون المرجع الأساسي الذي نعتمد عليه في وصف هذه الرحلة، والعنوان الأصلي كما أورده المترجمان في مقدمة الترجمة (In Unknown Arabia) ص١١، وقد نشر الكتاب بواسطة دار "ماكميلان" ١٩٢٦م، كما جاء ص٥ في الحديث عن المؤلف .

(٧) إحدى كتائب الجيش البريطاني في الحرب العالمية الأولى .

(٨) تشيزمان، المصدر السابق، ص٢٠ .

(٩) المصدر نفسه، ص٢٠ . ومن المعلوم أن الهند كانت وقتئذ مستعمرة بريطانية، ويقصد ببلاد ما بين النهرين العراق.

(١٠) المصدر نفسه، ص٢٠ .

(١١) المصدر نفسه، ص ٢١ .

(١٢) المصدر نفسه، ص ٢٢ .

(١٣) المصدر نفسه، ص٢٣ .

(١٤) المصدر نفسه والصفحة نفسها .

(١٥) المصدر نفسه، ص٢٧ .

(١٦) المصدر نفسه، ص٣٣ . والهفوف عاصمة الأحساء، والعقير كان – سابقا – الميناء الوسيط على الخليج العربي الذي يغذي شرق شبه الجزيرة العربية ووسطها بالواردات المختلفة، وتخرج منه بعض الصادرات، وذلك بحكم قربه من ميناء البحرين الذي يعد من المحطات الرئيسة لسفن التجارة العالمية وقتها = = لمزيد من المعلومات حول ميناء العقير راجع: نورة بنت مشخص العتيبي، ميناء العقير في العهد العثماني الثاني، رسالة ماجستير، كلية الآداب، جامعة الملك فيصل، ١٤٣٨هـ / ٢٠١٧م.

(١٧) المصدر نفسه، ص ص ٥٢–٥٤ .

(١٨) المصدر نفسه، ص ص ٥٤، ٥٥ .

(١٩) العتيبي، المرجع السابق، ص ٦٢ .

(٢٠) تشيزمان، المصدر السابق، ص ٥٥ .

(٢١) المصدر نفسه، ص ٦١ . وبطليموس: من علماء الإغريق القدامى في الفلك والرياضيات والجغرافيا، توفي على الأرجح في منتصف القرن الثاني الميلادي في الإسكندرية أو بالقرب منها . والحضارة الفينيقية: إحدى الحضارات القديمة قبل الميلاد، وكانت مشهورة بالمدن الساحلية، وهناك من يرجع الفينيقيين إلى الكنعانيين .

(٢٢) ورد في الهامش رقم (١) ص ٨٧ تعليق نصه:" الجشة: قرية من قرى الهفوف الكبيرة وهي آخر قراها الشرقية . انظر: حمد الجاسر، معجم المنطقة الشرقية – القسم الأول، ص ص ٤٠٥ – ٤٠٦ . (المترجمان) ".

(٢٣) تشيزمان، المصدر السابق، ص ٨٧ .

(٢٤) المصدر نفسه، ص ٨٨ .

(٢٥) المصدر نفسه والصفحة .

(٢٦) المصدر نفسه والصفحة .

(٢٧) المصدر نفسه، ص ٩١ .

(٢٨) ورد في الهامش رقم (١) ص ٩١ تعليق نصه:" الأربع: هضبات ذات رؤوس أربعة شامخة تقع جنوب بلدة الهفوف . انظر: حمد الجاسر، معجم المنطقة الشرقية، القسم الأول، ص ١٤٧. (المترجمان) ".

(٢٩) ورد في الهامش رقم (٢) ص ٩١ تعليق نصه:" جبل القاره: يقع شمال شرق الهفوف بجوار قرية القاره . انظر: حمد الجاسر، معجم المنطقة الشرقية، القسم الرابع، ص ١٣٨٣ . (المترجمان) ".

(٣٠) تشيزمان، المصدر السابق، ص ٩١ .

(٣١) المصدر نفسه، ص ٩٢ .

(٣٢) ورد في الهامش رقم (١) ص ٩٨ تعليق نصه:" الجفر: قرية من قرى الهفوف تقع شرق قرية الفضول . انظر: حمد الجاسر، معجم المنطقة الشرقية، القسم الأول، ص ٤٠٨ . (المترجمان)".

(٣٣) ورد في الهامش رقم (٢) ص ٩٨ تعليق نصه:" الفضول: قرية تقع إلى الشرق من الهفوف مسافة ساعة لراكب الدابة . انظر: حمد الجاسر، ص١٣١١ . (المترجمان) ".

(٣٤) تشيزمان، المصدر السابق، ص ٩٨ .

(٣٥) المصدر نفسه، ص ٩٩ .

(٣٦) المصدر نفسه، ص ١٢٦ .

(٣٧) المصدر نفسه، ص ٢٣ .

(٣٨) المصدر نفسه، ص ٥٥ .

(٣٩) المصدر نفسه، ص ٥٧ .

(٤٠) المصدر نفسه، ص ٥٧ .

(٤١) للتعرف على نشأة الدولة السعودية وتاريخها انظر: عبد الله الصالح العثيمين، تاريخ المملكة العربية السعودية (ج١، ج٢)، الأمانة العامة للاحتفال بمرور مائة عام على تأسيس المملكة، الرياض، ١٤١٩هـ / ١٩٩٩م .

(٤٢) ورد في الهامش رقم (٣) ص ٥٦ تعليق نصه:" الملك عبد العزيز (سلطان نجد في ذلك الوقت) ليس زعيم طائفة مثلما يزعم المؤلف بل كان إماما للمسلمين . (المترجمان) ".

(٤٣) تشيزمان، المصدر السابق، ص ٥٦ .

(٤٤) المصدر نفسه، ص ٢٩ .

(٤٥) المصدر نفسه، ص ٥٧ .

(٤٦) المصدر نفسه، ص ٥٨ . وقد ورد في الهامش رقم (١) بالصفحة نفسها تعليق نصه:" هذه من آراء المؤلف غير الدقيقة . (المترجمان) ".

(٤٧) المصدر نفسه، ص ٥٦ .

(٤٨) الأمير عبدالله بن جلوي بن تركي بن عبدالله بن محمد بن سعود يتصل نسبه بمؤسس الدولة السعودية بدوريها الأول والثاني. ولد في الرياض عام ١٢٨٧هـ/١٨٧٠م، تلقى علومه الأولية في كتاتيب الرياض على أيدي علمائها ومشايخها. ارتبط الأمير عبدالله بالملك الموحد عبدالعزيز ارتباطا وثيقا أثناء جهوده لتوحيد البلاد، واشتهر بالبسالة والبطولة. أسند له الملك عبدالعزيز إمارة الأحساء عام ١٣٣١هـ/١٩١٣م ومنحه صلاحيات واسعة في الحكم. وبقي فيها حتى وفاته رحمه الله عام ١٣٥٤هـ/١٩٥٣م.

(٤٩) تشيزمان، المصدر السابق، ص ١٠٠، ١٠١ .

(٥٠) ورد في الهامش رقم (١) ص ١٠١ تعليق نصه:" محمد أفندي: موظف عثماني جاء من الموصل إلى الأحساء سنة ١٢٩٨ هـ وأسند إليه العثمانيون شئون المال . ولما استولى الملك عبد العزيز على الأحساء سنة ١٣٣١ هـ أبقاه في وظيفته لأمانته وكفاءته الإدارية، وبقي في هذه الوظيفة حتى توفي سنة ١٣٤٥ هـ . انظر: إبراهيم العتيبي، تنظيمات الدولة في عهد الملك عبد العزيز، الطبعة الأولى، الرياض ١٤١٤ هـ، ص ٢٩٣، (هامش رقم ٣) . (المترجمان) ".

(٥١) تشيزمان، المصدر السابق، ص ١٠٣ .

(٥٢) المصدر نفسه، ص ١١٥ .

(٥٣) المصدر نفسه، ص ٢١ .

(٥٤) المصدر نفسه، ص ٢٢٣ .

(٥٥) المصدر نفسه، ص ٢٢٧ .

(٥٦) المصدر نفسه، ٢٢٤ .

(٥٧) كلمة " أوتوقراط " يونانية الأصل وتعني: الحاكم الفرد أو من يحكم بنفسه . وفي المعاجم اللغوية العربية تعني: مستبد أو مطلق السلطة .

و"الأوتوقراطية" (بالإنجليزية Autocracy): شكل من أشكال الحكم تكون فيه السلطة السياسية بيد شخص واحد بالتعيين لا بالانتخاب . انظر: أوتوقراطية/https://ar.wikipedia.org/wiki

وتشيزمان هنا – في رأينا – يحاول التعبير عن شكل الحكم في البلاد بالمصطلحات السياسية التي يعرفها على سبيل التقريب وليس الدقة .

(٥٨) تشيزمان، المصدر السابق، ص ٢٢٥ .

(٥٩) ورد في الهامش رقم (١) ص ٢٤ تعليق نصه:" الاسم الصحيح لهذه الواحة هو يبرين التي تقع إلى جنوب الجنوب الغربي من الهفوف، وعن هذه الواحة وتاريخها انظر: حمد الجاسر، المعجم

الجغرافي للبلاد العربية السعودية، المنطقة الشرقية (بعد ذلك معجم المنطقة الشرقية)، منشورات اليمامة، الرياض، الطبعة الأولى، ١٣٩٩ هـ، القسم الرابع، ص ص ١٨٦٩ – ١٨٨٠ . (المترجمان) ".

(٦٠) اتسمت العلاقة بين الملك عبد العزيز والشريف الحسين بن علي أمير مكة المكرمة في هذه الفترة بالتوتر، حيث شهدت هذه الفترة محاولات بريطانيا عقد مؤتمر الكويت لترسيم الحدود بين نجد والحجاز وشرقي الأردن. إلا أن رفض الشريف حسين حضور أو إرسال مندوب عنه أفشل المؤتمر. وكان الملك عبدالعزيز في الأحساء يراقب المؤتمر وما سوف يتمخض عنه من نتائج. للمزيد انظر: آل فائع، أحمد بن يحيى، العلاقات بين الملك عبدالعزيز والملك حسين بن علي وضم الحجاز، دارة الملك عبدالعزيز، الرياض، ١٤٣٣هـ.

(٦١) ورد في الهامش رقم (٢) ص ٢٥٠ تعليق نصه:" هو السيد محمد بن علي الإدريسي أمير الإمارة الإدريسية في تهامة عسير ويبدو أن الاضطراب الذي يشير إليه الملك عبد العزيز هنا هو الذي تلا وفاة السيد محمد عام ١٣٤١ هـ (١٩٢٣ م) . انظر: الزركلي، شبه الجزيرة، ج ٢، ص ٥٣٥ . (المترجمان) ".

(٦٢) ورد في الهامش رقم (٢) ص ٢٥٠ تعليق نصه:" هو الإمام يحيى بن محمد بن يحيى حميد الدين ملك اليمن، ولد بصنعاء عام ١٢٨٦ هـ وتولى الإمامة بعد وفاة والده عام ١٣٢٢ هـ، وفي عهده خرج الترك من اليمن عام ١٣٣٦ هـ واستقل بحكمها، ومات مقتولا عام ١٣٦٧ هـ . انظر: الزركلي، الأعلام، ج ٨، ص ص ١٧٠ – ١٧١ . (المترجمان) ".

(٦٣) تشيزمان، المصدر السابق، ص ٢٥٠ .

(٦٤) المصدر نفسه، ص ٢٤٦ .

(٦٥) المصدر نفسه، ص ٢٠٩ . والظاهر أن حديثه عن الضرائب كان يعني الزكاة، ونصابها معروف وواضح .

(٦٦) المصدر نفسه، ص ١٤٧ .

(٦٧) ورد في الهامش رقم (١) ص ٢٥٦ تعليق نصه:"لم يكن الملك عبد العزيز ولا الملوك من بعده يصدرون أحكاما في القضايا سواء كانت مدنية أو جنائية فذلك من اختصاص قاضي الشرع، وإنما كان هو ومن خلفه في حكم البلاد يأمرون بتنفيذ الأحكام بعد صدورها . (المترجمان) ".

(٦٨) ورد في الهامش رقم (٢) ص ٢٥٦ تعليق نصه:" هي منطقة برج لندن أحد المعالم المميزة الشهيرة في تاريخ العاصمة البريطانية، وهو حصن قديم ومقر ملكي . كان لعدة قرون سجنا

لكثير من المعتقلين المشهورين، له عدة أبراج منها البرج الدموي الذي أعدم فيه الكثيرون . انظر الموسوعة العربية الميسرة، إشراف محمد شفيق غربال، القاهرة، دار الجيل، ١٤١٦ هـ / ١٩٩٥ م، ج٢، ص ٣٤٤ . (المترجمان) ".

(٦٩) تشيزمان، المصدر السابق، ص ٢٥٥-٢٦٦ . وقد ورد في الهامش رقم (٣) ص ٢٥٦ تعليق نصه:" لم يكن الملك عبد العزيز يتبع نظاما قضائيا عربيا بل كان نظامه هو الشرع الإسلامي، أما قول المؤلف أن رجال القبائل لا ينظرون إلى السجن بنفس درجة الخزي في الحضارات الحديثة فهو رأي شخصي خاص به وقد يكون حتى عنصريا . (المترجمان) ".

(٧٠) المصدر نفسه، ص ٩٩ .

(٧١) المصدر نفسه، ص ٩٣ .

(٧٢) المصدر نفسه، ص ٩٣ .

(٧٣) المصدر نفسه، ص ٢١٥ .

(٧٤) المصدر نفسه، ص ١٠٠ .

(٧٥) المصدر نفسه، ص ١٠٤ .

(٧٦) المصدر نفسه، ص ١٣٠ . والصورة مصدرها ص ٢٣٤ بالكتاب، اللوحة (٢٥) .

(٧٧) يقصد بذلك أهل شبه الجزيرة العربية الموالين للملك عبد العزيز، فهو تعود على الإشارة إليهم بالوهابيين .

(٧٨) المصدر نفسه، ص ٥٦ .

(٧٩) المصدر نفسه، ص ٥٧ .

(٨٠) المصدر نفسه، ص ٥٨ .

(٨١) المصدر نفسه، ص ٣٢٩ .

(٨٢) المصدر نفسه، ص ١٠١ .

(٨٣) المصدر نفسه، ص ١٦٢ . وقد ورد في الهامش رقم (١) بالصفحة نفسها تعليق نصه: "هنا سطران لم تترجم حيث شبه المؤلف صوت المؤذن بشيء لا يليق بالإسلام . (المترجمان)".

(٨٤) المصدر نفسه، ص ٩٤، ٩٥ .

(٨٥) المصدر نفسه، ص ١٩٧ .

(٨٦) المصدر نفسه ص ١٩٨ .

(٨٧) المصدر نفسه، ص ١٠٥ .

(٨٨) المصدر نفسه، ص ١١٧ .

(٨٩) المصدر نفسه، ص ٩٢ .

(٩٠) المصدر نفسه، ص ٩٣ .

(٩١) المصدر نفسه، ص ١٢٥ .

(٩٢) المصدر نفسه، ص ١٢٣ .

(٩٣) ورد في الهامش رقم (١) ص ١٢٧ تعليق نصه:" المشكال هو أداة تحتوي على قطع متحركة من الزجاج الملون ما إن تتغير أوضاعها حتى تعكس مجموعة لا نهاية لها من الأشكال الهندسية المختلفة الألوان . (المترجمان) ".

(٩٤) تشيزمان، المصدر السابق، ص ١٢٧ . والصورة مصدرها ص ١١٦ بالكتاب، اللوحة (١٦) .

(٩٥) المصدر نفسه، ص ١٢٨ .

(٩٦) المصدر نفسه، ص ص ١٦٥-١٦٦ .

(٩٧) المصدر نفسه، ص ١٥١ . وصور العملات مصدرها ص ١٥٣ بالكتاب اللوحة (٢٣) .

(٩٨) المصدر نفسه، ص ص ١٥١ – ١٥٢ .

(٩٩) المصدر نفسه، ص ١٥٢ .

(١٠٠) المصدر نفسه، ص ١٥٢ .

(١٠١) المصدر نفسه، ص ص ١٥٠ – ١٥١ .

(١٠٢) المصدر نفسه، ص ١٥٤ .

(١٠٣) المصدر نفسه، ص ٩٤ .

(١٠٤) المصدر نفسه، ص ٩٥ .

(١٠٥) المصدر نفسه، ص ١٣٥ .

(١٠٦) المصدر نفسه، ص ٩٦ .

(١٠٧) المصدر نفسه، ص ١١٠ .

(١٠٨) ورد في الهامش رقم (١) ص ١٤٤ تعليق نصه:" السعيدية والكودلا صنفان محليان من القمح . انظر صبحي يوسف عيد، الجغرافيا الزراعية لواحات الأحساء، رسالة دكتوراه مقدمة لقسم الجغرافيا، كلية الآداب، جامعة القاهرة ١٣٩٩هـ، ص ص ٣٠٨-٣٠٩ . (المترجمان) ".

(١٠٩) تشيزمان، المصدر السابق، ص ص ١٤٤-١٤٥ .

(١١٠) المصدر نفسه، ص ١٤٩ .

(١١١) المصدر نفسه، ص ٩٦ .

(١١٢) المصدر نفسه، ص ٢٦٦ .

(١١٣) المصدر نفسه، ص ص ٢٦٧-٢٦٨ . والصورتان مصدرهما (لوحة رقم ١٨) ص ١٢٠، و(لوحة رقم ٢٢) ص ١٤٠ بالكتاب .

(١١٤) المصدر نفسه، ص ٢٤ .

(١١٥) المصدر نفسه، ص ٢٥١ . ولمزيد من التفاصيل عن سبب وقوع هذا الخطأ يرجع إلى ص ص ٤٥- ٤٨ .

(١١٦) المصدر نفسه، ص ٢٥٠ .

(١١٧) المصدر نفسه، ص ٢٥ .

(١١٨) المصدر نفسه، ص ٢٨٨ .

(١١٩) المصدر نفسه، ص ٢٩٦ .

(١٢٠) المصدر نفسه، ص ٣٢٨ .

(١٢١) المصدر نفسه، ص ٣٣٦ .

(١٢٢) المصدر نفسه، ص ص ٣٣٦- ٣٣٧ .

(١٢٣) المصدر نفسه، ص ٣٤٠ .

(١٢٤) المصدر نفسه، ص ص ٣٣٧- ٣٣٨ . والصورة مصدرها ص ٣٣٩ بالكتاب، لوحة رقم٤٧.

(١٢٥) المصدر نفسه، ص ٣٥٢ .

(١٢٦) المصدر نفسه، ص ٣٤٣ .

(١٢٧) المصدر نفسه، ص ص ٣٦٢- ٣٦٣ .

(١٢٨) المصدر نفسه، ص ٣٦٦ .

(١٢٩) المصدر نفسه، ص ٣٩٨ .

(١٣٠) المصدر نفسه، ص ص ٤٠٢- ٤٠٤ .

(١٣١) يقع هذا الوادي في صحراء الجافورة الفاصلة بين الهفوف وواحة يبرين .

(١٣٢) جاء في الهامش رقم (١) ص ٤٠٦ ما نصه:" لم تذكر المعاجم الجغرافية العربية القديمة منها والحديثة اسم واد بهذا الاسم في وسط جزيرة العرب، إلا أن الإدريسي أورد وادي أفنان وهو الاسم القديم لوادي حنيفة . انظر: محمد بن عبد الله الإدريسي، نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، بورسعيد، مكتبة الثقافة الدينية، المجلد الأول، ص ١٦١ . (المترجمان) ".

(١٣٣) فيما يبدو أن حديثه ص ٣١٤ الذي أوردناه سابقا عن احتمال وجود نهر عظيم قديما في صحراء الجافورة غطته الرمال كان مجرد اجتهاد لم يستطع إثباته، وإن كنا نرى أنه احتمال راجح تثبته هذه العيون الجارية ذات الأسماك، كما أن الأمطار على مرتفعات نجد لا بد أنها حفرت لنفسها مجرى نهريا كما هو الحال في قارات العالم .

(١٣٤) تشيزمان، المصدر السابق، ص ص ٤٠٤– ٤٠٧ .

(١٣٥) المصدر نفسه، ص ١٣ .

(١٣٦) المصدر نفسه، ص ١٦ .

(١٣٧) المصدر نفسه، ص ١٧ .

(١٣٨) يشبه هذا الأسلوب أسلوب المؤرخ النجدي عثمان بن بشر في كتابه "عنوان المجد في تاريخ نجد".